آخر العمالقة!

محمود سالم

آخر العمالقة!

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

آخر العمالقة!

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٢ ٢٤٦٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
من الذي بدأ الهجوم؟	١١
احتمال من ثلاثة	١٥
مفاجأة في «فانتيه»	٢١
تحت المطر عند «نوتردام»	٢٧
تحت الأرض في «باريس»	٣٣
مطاردة عنيفة ومفاجأة مذهلة	٣٩
صراع على شاطئ «السين»	٤٣
النظرة الأخيرة	٤٩

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

من الذي بدأ الهجوم؟

كان الشياطين الـ «١٣» جميعًا في المقر السري، بعد مغامرة «قارئ الأفكار» و«٩٩٩»؛ فقد كان رقم «صفر» يرى أن يقوم الشياطين بتقييم المعركتَين اللتَين خاضوهما ضد هذا العدو الغريب؛ فلم يكن «مالمو» قارئ الأفكار مجرمًا عاديًّا، لقد كان رجلًا خطيرًا، يستطيع قراءة أفكار أي شخص على أية مسافة، وبهذا كان يستطيع في أي وقت أن يعرف الخطط مسبقًا، ويتمكَّن من إحباطها والقضاء عليها، وفي نفس الوقت يبني هجومه على معلومات مؤكَّدة!

وقد اختاره اتحاد العصابات للهجوم على رقم «صفر» وعلى الشياطين الـ «١٣»، وقد كاد ينجح في ذلك، لولا تضحية «ش. ٢٨»، أحد أعوان رقم «صفر» بنفسه لكشف مكان «مالمو» في الوقت المناسب ...

وقد كانت الجولة الأولى بين الشياطين الـ «١٣» و«مالمو» في بيروت، ثم كانت الثانية في القاهرة ... واستطاع «مالمو» في الجولتَين أن يهرب في الوقت المناسب. بعد أن قضى الشياطين على أعوانه، وأهمهم الزعيم «كاتسكا» ومستر «ون بولت» ... ثم كانت مغامرة رقم ٩٩٩، وآن الأوان للدخول في جولة ثالثة مع العصابة ...

لقد غادر «مالمو» القاهرة قبل نهاية الجولة الثانية بثلاث ساعات، وهذا يعني أن عدوَّهم الخطير ما زال حيًّا، وأنه يمكن أن يعود مرةً أخرى ...

وهكذا جمع رقم «صفر» الشياطين الـ «١٣»، وطلب من كل من اشترك منهم في الجولتَين أن يُقدِّم تقريرًا عن تصوُّره لما حدث، وعن الجولة الثالثة التي لا بد أن تقع.

وقدَّم الشياطين التقارير المطلوبة، وقضوا ثلاثة أيام في تدريبات عادية في المقر السري ... وفي صباح اليوم الرابع، في الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين، كانت الأضواء الحمراء تلمع في غرفهم جميعًا تدعوهم إلى اجتماع.

وفي الصالة الرئيسية بالمقر السري جلس الشياطين الـ «١٣»، وسمعوا الخطوات الثقيلة المنتظمة لرقم «صفر» وهو يتقدَّم من المنصة العالية التي اعتاد أن يجلس عليها، محاطًا بزجاج يراهم من خلاله ولا يرونه ... وسمعوا صوت حركة المقعد العالي الذي يجلس عليه، ثم سعوا صوت رقم «صفر» العميق وهو يُلقي عليهم تحيَّة الصباح، ويصمت ثم يقول: لقد قرأت التقارير كلها، وقد أُعجبت بآرائكم حول المعارك التي خضناها ضد هؤلاء المجرمين، وأعتقد أننا قمنا بعمل عظيم، وقد لاحظت أنكم جميعًا تقريبًا تتوقَّعون جولةً ثالثةً مع «مالمو»، وفي هذه المرة سنقوم نحن بالهجوم ...

وصمت رقم «صفر» لحظات، ثم قال: لقد استطاع «مالمو» أن يكتشف مقرَّكم في بيروت، بل استطاع أن يعرف مكاني، فهذا يدل على خطورة هذا الرجل. وما أخشاه حقيقةً أن يتمكَّن في الجولة الثالثة من أن يعرف المقر السري الرئيسي، الذي لا يمكن تعويضه!

وعاد رقم «صفر» مرةً أخرى إلى الصمت، ثم قال: وهذا ما لا يمكن أن أسمح به. إن الأماكن السرية الأخرى في العواصم العربية يمكن تعويضها، أمَّا المقر الرئيسي فلن نستطيع تعويضه إذا اكتشف مكانه ... لهذا يجب أن نذهب لـ «مالمو» في مكانه قبل أن يحضر هو لنا!

ونظر الشياطين بعضهم إلى بعض، وابتسمت «إلهام» فقد كانت صاحبة فكرة مهاجمة «مالمو» قبل أن يُهاجمهم ... وقال رقم «صفر»: إن «إلهام» قد تقدَّمت بنفس هذا الاقتراح، أن نهاجم بدلًا من أن ننتظر الهجوم، وذلك بناءً على نظرية أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ... وقد تابعنا بواسطة أجهزتنا تحرُّكات «مالمو» بعد أن غادر القاهرة، واستطعنا أن نعرف أنه بعد أن غادر القاهرة سافر إلى جزيرة صقلية، وقضى هناك ٢٤ ساعة، ثم غادرها إلى «باريس»، حيث فقدنا أثره تقريبًا، وإن بقيت لنا بعض شواهد مكَّنتنا ببعض الجهد من إعادة تتبُّعه.

وساد الصمت لحظات، ثم مضى رقم «صفر» يقول: ونحن نعرف بالطبع أن صقلية هي الموطن الأول لعصابة «المافيا» الدولية الخطيرة؛ ومعنى ذلك أن «مالمو» سيستعين بهذه العصابة الخطيرة في الجولة الثالثة ... وهذا هو الخيط الذي سنسير خلفه حتى نصل إلى مكان «مالمو» ... وقد طلبتُ من رجلنا في «باريس» «العصفور الأبيض» أن يُتابعه ... وقد جمعتكم اليوم لاختيار خمسة منكم للسفر إلى «باريس»، حيث سيتم الصدام الحتمي بيننا وبين «مالمو» وأعوانه ... وأنا أعرف أن «إلهام» و«بو عمير» قد قضيا فترةً طويلةً في «باريس»، لهذا فإنني أُرشِّحهما للسفر إلى هناك، ضمن الخمسة المسافرين.

وسكت رقم «صفر»، ونظر المغامرون بعضهم إلى بعض، ثم قال «خالد»: إنني و«باسم» و«فهد» و«قيس» في مهمة تدريبية في الجبال ... فلْيكن الترشيح من بين الباقين.

قال رقم «صفر»: إن المجموعة التي تضم «أحمد» و«عثمان» و«زبيدة» مجموعة متجانسة، وقد عملوا من قبلُ معًا، وخاضوا المعركتَين ضد «مالو» وهم أدرى به ... فإذا لم تكن هناك اعتراضات، فلْيكن الخمسة هم: «إلهام» و«بو عمير» و«عثمان» و«أحمد» و«زبيدة».

ونظرت «إلهام» إلى «أحمد» الذي بادلها النظرات، ولكنها لم تسترسل في أحلامها؛ فقد عاد رقم «صفر» إلى الحديث فقال: والآن إليكم التعليمات ... ستسافرون بلا أسلحة؛ فكل شيء تحتاجون إليه موجود هناك وسوف ينتظركم «العصفور الأبيض» واسمه الحركي «مارشيه» في مدينة «فانتيه»، وهي تقع على خط السكة الحديد والطريق الزراعي المؤدِيَين إلى «باريس»، وهناك فيلا حمراء تقع في وسط الحقول، يملكها تاجر فرنسي من المتعاونين معنا، والفيلا محاطة بزهور «الجاردينيا»، وأبوابها ونوافذها صفراء اللون ... وهذه الفيلا هي مركز تجمُّعكم؛ فسوف تُسافرون فُرادى، أو كل اثنين معًا، وتلتقون هناك بعد ٧٢ ساعةً من الآن ... وسيضع «مارشيه» كل المعلومات اللازمة أمامكم، وسيكون الاتصال بي عن طريقه؛ فعنده جميع الأجهزة اللازمة للاتصال في فيلا «الجاردينيا».

وتنهَّد رقم «صفر» ثم قال: هل من أسئلة؟

أسرع «أحمد» يسأل: هل تنتهي مهمتنا بالقضاء على «مالو»؟

رقم صفر: ليس أكثر من هذا ... «مالو» فقط ... أمَّا بقية من يستعين بهم فأمرهم سهل مهما كانت قدرتهم ... إن «مالو» أخطر رجل قابلناه حتى الآن؛ لأنه يملك قدرةً خارقةً لا تتوفَّر لأي شخص آخر ...

قال «عثمان» ضاحكًا: ما رأي سيادتك في أن نأسر «مالو» ونحضره معنا؟

ردَّ رقم «صفر»: إنني أترك لكم حرية التصرُّف ... ولكن دون إسراف في التعرُّض للمخاطر. تعليماتي لكم هي أن تقضوا عليه، ولم يرِد في حديثي أية إشارة إلى أسره ... فأنا أعرف أن ذلك مستحيل!

وانفضَّ الاجتماع ... وفي خلال الساعات التالية، عقد الشياطين الخمسة المكلَّفون بالمهمة عدة اجتماعات ... وفي صباح اليوم التالي، كانت «إلهام» و«أحمد» يركبان الطائرة المتجهة إلى «لندن» لمزيد من التخفِّي، ثم يركبان من لندن إلى «باريس» ... وكان «عثمان» و«زبيدة» يركبان طائرةً إلى «روما»، ومنها إلى «باريس» ... وكان «بو عمير» وحده هو

الذي طار إلى «باريس» مباشرة؛ ليكون في استقبال الأربعة في العاشرة من صباح اليوم التالي، وكان موعد سفره السابعة مساءً ...

كانت الطائرة التي يركبها «بو عمير» من طائرات شركة «إير فرانس» الفخمة، وكان يجلس في الدرجة الأولى مستمتعًا بالكرسي الضخم، ممدِّدًا ساقَيه في استرخاء، وهو يُفكِّر في المغامرة القادمة ... ولكن شعورًا داخليًّا جعله يشعر أنه مراقب بشكل ما ... فتظاهر بالنوم وأغمض عينَيه نصف إغماضة، وأخذ يرقب الركاب الذين معه من خلف جفنَيه المطبقَين، وأدرك على الفور مصدر الخطر ... كان ثمة شخص يجلس في نفس الصف الذي يجلس فيه ولكن في الجانب الأيسر ... وأخذ «بو عمير» يتأمَّله ... كان رجلًا متوسِّط القامة، شديد الأناقة، قد بسط أمامه بعض الأوراق وحقيبةً صغيرة، وأخذ يكتب باستغراق، ولكن «بو عمير» أدرك على الفور أنه يتظاهر بالكتابة، بقلم أكبر من الحجم العادي قليلًا، وكان الجزء المعدِني من القلم موجَّهًا إلى «بو عمير» ... هل هو مسدس صامت؟ هل يحاول هذا الشخص قتله في مكانه؟ وكان الرجل يضغط على القلم مرَّات متعدِّدة، وعرف «بو عمير» أن الرجل لا يُريد قتله؛ إنه يُصوِّره فقط، وليس هذا القلم إلَّا كاميرا دقيقة، والضغط عليه معناه إدارة الفيلم ليلتقط مزيدًا من الصور!

ظلَّ «بو عمير» هادئًا رغم توتُّر أعصابه ... لقد عرف أن «مالمو» قد تحرَّك قبلهم وأنهم مراقبون ... وتصوَّر ما يحدث الآن لكلٍّ من «إلهام» و«أحمد» و«عثمان» و«زبيدة»، فلا بد أنهم متبوعون، وقد تمت مهاجمتهم قبل أن يصلوا إلى «باريس» ...

وكان السؤال الذي يجب أن يُجيب عليه فورًا هو: ماذا ينبغي عليه أن يفعل الآن؟ إن مهاجمة الرجل في هذه اللحظة جنون ... وليس في إمكانه إلَّا أن يُحاول متابعة الرجل، بعد أن ينزل في المطار ... ولكن الأغلب أن الرجل هو الذي سيُحاول متابعته؛ وهذا يعني أنهما سيلعبان معًا لعبة اتبعني وأتبعك ... فمن منهما يكسب؟!

كانت الطائرة الجبَّارة تمضي فوق البحر، تهدر في سماء تبدو صافية، ولكن تحتها كانت السحب السوداء تُنبئ عن جوٍّ عاصف مطير ... وكان «بو عمير» يتناول عشاءه، عندما أحسَّ فجأةً أن الطائرة تترنَّح، وشاهد المضيفة تقف بالباب وهي تبتسم قائلة: سيداتي سادتي، هناك بعض المتاعب، ولكن ليس هناك خطر على الإطلاق ...

ولكن الابتسامة المطمئنة على وجه المضيفة لم تكن تعني شيئًا أمام ما حدث ... فقد أخذت الطائرة تترنَّح في الجو، واهتزَّ كل شيء في الطائرة، وسقطت أطباق الطعام، وانتشر جو من الفزع والذعر بين الركاب ...

احتمال من ثلاثة

ساد الهرج والمرج الطائرة ... ووقف عدد من الركاب رغم تعليمات البقاء وربط الأحزمة، وبدا الفزع على الوجوه، وصرخت بعض السيدات ... أمَّا «بو عمير» فقد كان ذهنه يعمل بسرعة، ليس فيما تتعرَّض له الطائرة من مشاكل، ولكن في الاستفادة من هذا الموقف المضطرب؛ فقد لاحظ أن السيدة التي تجلس بجوار الرجل الذي كان يُصوِّره، قد أصابتها نوبة من الهستيريا، وأن الرجل يُحاول تهدئتها ... فقام «بو عمير» مسرعًا واشترك في تهدئتها، وعينيه على القلم الذي كان الرجل يتظاهر بالكتابة به ويُصوِّره في نفس الوقت ... كان «بو عمير» قد شاهد الرجل وهو يضع القلم في جيبه الداخلي، ومع اهتزاز الطائرة، تظاهر «بو عمير» أنه فقد توازنه، وسقط على الرجل، وبأصابع مدرَّبة نشل القلم، ثم استمرَّ في محاولة تهدئة السيدة ... وبعد لحظات عاد إلى مقعده، بعد أن عاودت المضيفة التنبيه بشدة على الركاب أن يبقوا في أماكنهم وأن يربطوا الأحزمة ... ثم أضافت وهي تبتسم: لقد انتهت المشكلة واستطعنا تجاوز الخطر ...

وفعلًا، لم تمضِ سوى دقيقة واحدة حتى اعتدلت الطائرة، ومضت باتزان تشق طريقها ...

جلس «بو عمير» مكانه والقلم في جيبه، وهو يُفكِّر فيما سيحدث بعد قليل ... سوف يكتشف الرجل ضياع القلم، ويستنتج أن «بو عمير» هو الذي أخذه ... فماذا سيفعل؟

ولكن قبل أن يسترسل في تفكيره، أذاع ميكروفون الطائرة أنهم يقتربون من «باريس»، فانشغل بالتفكير في خطة العمل القادمة ... وأخذت الطائرة تحوم فوق المدينة الضخمة، ثم بدأت تُهدِّئ من سرعتها، وأخذت تهبط حتى وصلت إلى منطقة السحاب، الذي كان يهطل بشدة ...

وراقب «بو عمير» قطرات المطر وهي تلمع فوق جناح الطائرة، التي اهتزَّت قليلًا وهي تتجاوز السحاب، ثم أخذت تحوم حول مطار «أورلي الدولي» في «باريس»، ثم نزلت العجلات، وأحسَّ بالطائرة تهتز وعجلاتها تلمس الأرض، ثم مضت مسرعةً على الأرض الزلقة، ودارت، ثم توقَّفت تمامًا ... وبدأ الركاب يفكون الأحزمة ويستعدون لمغادرة الطائرة ... كانت يدا «بو عمير» تعملان في جمع حاجياته القليلة، بينما عيناه تنظران خِلسةً إلى الرجل، استعدادًا للَّحظة التي يتبيَّن فيها الرجل فقْد قلمه ... ولكن كل شيء مضى بهدوء، وبدأ صف الركاب يتحرَّك نازلًا ...

وحرص «بو عمير» أن يكون خلف الرجل ببضعة أشخاص، ليُراقب حركاته دون أن يُحس الآخر ... وبدأ النزول على السلم. كان جو ديسمبر العاصف والمطر والظلام في انتظار النازلين الذين أخذوا يتحدَّثون عن رداءة الجو، بينما كان «بو عمير» سعيدًا به فهذا أفضل جوٍّ للاختفاء! ...

كان جميع الركاب يجرون ناحية أبواب المطار، وظلَّ «بو عمير» محافظًا على المسافة بينه وبين الرجل، غير عابئ بالجو العاصف ولا المطر ... وقد خطر له فجأةً أن أمامه ليلةً بأكملها قبل أن يلتقي ببقية الشياطين في «فانتيه»، ولسي هناك ما يشغله، وأفضل ما يمكن عمله أن يتبع الرجل فقد يقودهم إلى «مالمو» أسرع ممَّا تقودهم معلومات «العصفور الأبيض» أو «روشيه».

ابتسم «بو عمير» لهذا الخاطر ... ودخل إلى الصالات الواسعة الدافئة، وسرعان ما انتهى من إجراءات الجمرك، ووقف ينتظر حقيبة ملابسه مع بقية الركاب وهو يرقب من بعيد الرجل الأنيق ... وفي هذه اللحظة حدث ما كان يتوقَّعه منذ نشل القلم، لقد اقترب رجلان من الرجل الأنيق، وتحدَّثا إليه، ورآه وهو يبتسم ثم يضع يده في جيبه الداخلي، وبدت عليه علامات الدهشة، وأخرج يده خالية، ثم وضعها في جيبه الآخر، ثم وضع حقيبته الصغيرة على الأرض وأخذ يُفتِّش بقيَّة جيوبه، وقد علت وجهه علامات الفزع والغضب ... ودار بعينَيه في صالة المطار حيث مئات من البشر يتحرَّكون في كل اتجاه ... كان واضحًا أنه يبحث عن «بو عمير»، ولكن الشيطان الذكي اختفى خلف أحد الأعمدة، وأخذ يُراقب الرجل وهو يتحدَّث مع زميلَيه، وقد ارتفعت الأذرع في حركات عصبية ... وفي هذه اللحظة بدأ وصول الحقائب على السير المتحرِّك، واتجه ركاب الطائرة لاستلام حقائبهم ... كانت هذه هي الفرصة المناسبة كي يكتشف الرجال الثلاثة مكان «بو عمير»، الذي لاحظ أنهم وزَّعوا أنفسهم حول مكان الحقائب في انتظار ظهوره ...

وفكَّر «بو عمير» لحظات، كان أمامه قراران لا ثالث لهما ... أن يظهر لاستلام حقيبته، ويتعرَّض لما يمكن أن يفعله الرجال الثلاثة، أو يستغني عن حقيبته وينصرف ... ولم يكن في الحقيبة شيء ذو أهمية، بعض الملابس فقط وفرشاة أسنانه، وحذاء إضافي، وكلها يمكن الاستغناء عنها ... وأخذ بالقرار الثاني فورًا ... وكل ما كان يُضايقه أنه لن يستطيع مراقبة الرجل ... ولكن ذلك لم يكن ممكنًا وهم ثلاثة يمكن أن يفتكوا به، بل أكثر من هذا، أن يذهبوا به إلى «مالمو» ليقرأ أفكاره ويعرف كل شيء عن الشياطين الـ «١٣»، خاصةً الخمسة الذين في «باريس» ...

ونظر «بو عمير» إلى الرجال الثلاثة جيدًا ليطبع صورتهم في ذهنه، وقد فكَّر أن يُصوِّرهم بالكاميرا القلم التي نشلها من الرجل، ولكن ذلك كان مستحيلًا بسبب الزحام، وبُعد المسافة مع احتمال أن يُشاهدوه ... وهكذا تسلَّل بهدوء خارجًا من المطار، وفوجئ مرةً أخرى بالطقس البارد الممطر، بعد دفء الصالة؛ فوضع يدَيه في جيبَي بنطلونه، ثم اتجه إلى أول تاكسي وركب.

كان «بو عمير» يُجيد الفرنسية، فلم يجد صعوبةً في التفاهم مع السائق، وأعطى له عنوان الفندق الذي نزل فيه سابقًا في «باريس»، فندق «فوجيرار» قرب متحف «الإنفاليد»، واستند على المقعد الخلفي، ومضت السيارة تقطع طريق المطار الطويل إلى «باريس» ...

كان فندق «فوجيرار» عتيقًا رمادي اللون، يقع في شارع فرعي قرب «الإنفاليد». وزيادةً في الحيطة، نزل «بو عمير» قبل الفندق بنحو مائتَي متر، ثم سار على قدمَيه، وأخذ ينظر حوله باحثًا عن محل لبيع الملابس، ولكن الوقت كان متأخِّرًا؛ فقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة، والجو مطير عاصف، ولا يمكن أن يوجد في «باريس» كلها محل واحد يفتح أبوابه في مثل هذه الساعة، إلَّا بعض المطاعم ودور اللهو.

وصل «بو عمير» إلى الفندق، ومن حسن الحظ وجد غرفةً خالية، ورغم إحساسه بالجوع في هذا الجو البارد فقد فضَّل أن يأوي إلى غرفته فورًا. وقام بتأمين الغرفة، فأغلق الباب جيدًا ووضع خلفه مقعدًا، وأغلق النافذة بعد أن نظر إلى الخارج، واطمأن إلى بُعد المساكن الأخرى ...

اكتفى «بو عمير» بخلع حذائه، ثم استلقى على الفراش، وأخذ شريط الأحداث الذي مرَّ به خلال النهار يلوح في ذهنه، ولم يتمالك نفسه من الإعجاب بقارئ الأفكار «مالمو»؛ فقد سبقهم إلى العمل، ووضع رقابةً على المطار من حيث ركبوا، ولا شك أن «أحمد» و«إلهام» و«عثمان» و«زبيدة» هم الآن تحت رقابة، وربما اصطدموا برجال «مالمو» ...

وأحسَّ بالقلق ولكن ثقته بالشياطين الأربعة، وإمكانياتهم الذهنية والجسمية خفَّفت من قلقه، وإن ظل يتساءل: كيف عرف «مالمو» بسفر الشياطين الخمسة، ولم يمضِ سوى ٤٨ ساعة على إصدار التعليمات لهم بالسفر؟! إن هذا يعني شيئًا واحدًا؛ إن «مالمو» يعرف خططهم مقدَّمًا، بواسطة شخص ما، سواء بقراءة أفكاره، أو بإرغامه على الحديث ... وظلَّ «بو عمير» يُفكِّر حتى استسلم للنوم ...

في السادسة صباحًا استيقظ «بو عمير» كعادته، واغتسل، ثم نزل فتناول إفطاره، وقرأ صحف الصباح، وأخذ يُطالع الإعلانات حتى عثر على ما كان يبحث عنه؛ سيارة من طراز «رينو ١٦» السريعة للإيجار ... وتحدَّث تليفونيًّا في السابعة والنصف مع صاحبها، وبعد أقل من ربع ساعة، كان يقودها عبر طرقات «باريس»، مغادِرًا المدينة الكبيرة إلى الريف، للالتقاء ببقية الشياطين، وبـ«العصفور الأبيض» «روشيه»، قرب قرية «فانتيه» الصغيرة.

لم تستغرق المسافة حسب الخريطة التي معه إلَّا ٢٠ دقيقة، وهكذا وجد نفسه قبل الموعد بثلث ساعة كاملة قرب «فانتيه»، فاختار مقهًى صغيرًا على الطريق، تناول فيه كوبًا من الشاي، ثم انتظر بضع دقائق، وانطلق في قلب الريف باحثًا عن الفيلا الحمراء. كان الجو غائمًا، ولكن السماء لم تكن تُمطر، وسرعان ما شاهد الفيلا في المكان الذي توقَّعه، على يسار شريط السكة، فركن سيارته، وسار بين المزروعات محاذِرًا، حتى وصل قُرب الفيلا، ووقف ينتظر ...

وفي الثالثة والنصف تمامًا، أطلق صيحة الخفَّاش الرفيعة الحادة، وهي علامة متَّفق عليها بين الشياطين، وسرعان ما جاءه رد سمعه على مبعدة أمتار منه، بين المزروعات النامية ... استمرَّ «بو عمير» يُطلق صيحة الخفَّاش، حتى وجد نفسه أمام «أحمد» و«إلهام»، فتصافح الثلاثة ثم قال «أحمد»: لم يظهر «عثمان» بعد.

بو عمير: لعله تعرَّض لشيء ما في الطريق من «روما» إلى «باريس»، هو و«زبيدة».

أحمد: لقد تعرَّضت أنا و«إلهام» لمطاردة عنيفة عبر المانش ...

بو عمير: وأنا أيضًا!

أحمد: لقد نشطوا مبكرين جدًّا، فكيف عرفوا بتحرُّكاتنا؟!

بو عمير: هذا السؤال يشغل ذهني، ولا أجد له إجابة ...

أحمد: ليس هناك سوى طريق واحد يمكن أن يعرفوا منه تحرُّكاتنا ... إنه «العصفور الأبيض» «روشيه»؛ فهو الوحيد الذي يعلم — وبالطبع بعد رقم «صفر» — أننا سننتقل إلى «باريس» للهجوم على «مالمو» قبل أن يُهاجمنا.

بو عمير: وهذا يعني أن «روشيه» قد خاننا، أو قرأ «مالمو» أفكاره، أو أجبروه على الحديث!

أحمد: كلها احتمالات ممكنة!

نظرت «إلهام» إلى ساعتها، ثم قالت: لقد تجاوزنا الموعد المحدَّد بسبع دقائق، فهل سننتظر حتى وصول «عثمان» و«زبيدة»؟

أحمد: ليس هذا فقط ... إن السؤال الآن: هل ندخل فيلا «الجاردينيا» بعد أن وصلنا إلى استنتاج أن «روشيه» قد وشى بنا بشكل أو بآخر؟! إن هذا يعني أننا نضع أنفسنا بين فكَّي الأسد!

مفاجأة في «فانتيه»

ساد الصمت الشياطين الثلاثة، ورفع «بو عمير» رأسه إلى فوق يرقب السماء ... كانت السحب تزداد سوادًا إيذانًا بمطر غزير، وكان الضباب يُغطِّي كل شيء حولهم، حتى لا يبدو من فيلا «الجاردينيا» التي لا تبعد عنهم إلَّا بضعة أمتار، لا يبدو منها إلَّا أطراف أبراجها الحمراء ...

قالت «إلهام»: لا مناص لنا من التقدُّم ... إن موعدنا مع «مارشيه» الساعة الثامنة والنصف، ولا أظنه سينتظر أكثر من ربع ساعة ثم ينصرف، فنفقد الخيط الوحيد الذي سيصلنا بـ «مالمو»، كي نبدأ العمل ...

كان حديث «إلهام» منطقيًّا، ولم يكن أمامهم إلَّا التقدُّم ... فسار «أحمد» في المقدمة ثم «إلهام» وخلفهما «بو عمير»، مختفين خلف المزروعات العالية، حتى وصلوا إلى سور الحديقة الذي غطَّته زهور «الجاردينيا»، ثم رفع «أحمد» يده بالتوقُّف، وأخذ ينظر بتركيز شديد على باب الفيلا، ثم تجاوز سور الحديقة ودخل، وظلَّ يقترب من الباب وحده وهو رافع يده، حتى لا تتبعه «إلهام» و«بو عمير» ... ثم انحنى وأخذ يتأمَّل الباب وعاد، وأخذ يبحث حوله لحظات، حتى وجد غصنًا طويلًا يتدلَّى من أحد الأشجار، فأخذ يثنيه حتى كسره، ثم اقترب من الباب وتمدَّد على الأرض ومدَّ الغصن ودفع الباب؛ ودوَّى انفجار هائل اقتلع الباب من مكانه وطار في الهواء، واندفع سيل من الدخان، وانهالت عشرات من قطع الأخشاب والحجارة! ...

وفي نفس الوقت دوَّى الرعد في السماء، وومض البرق واندفع المطر كالسيل ...

وقف «أحمد» ينفض عن ملابسه آثار الأحجار المتساقطة، وعاد حيث كان يقف «بو عمير» و«إلهام»، ونظر إليهما وقال: لقد كان الباب مفتوحًا وقد وضعوا شحنةً ناسفة تنفجر بمجرَّد فتح الباب، لكنهم نسوا شيئًا واحدًا؛ أن السلك الرفيع الموصل بين الباب

والعبوَّة الناسفة لونه أصفر واضح، وقد استطعت رؤيته، ولم يكن هناك بُدٌّ من أن نُجرِّب بهذه الطريقة، وإلَّا انتقلنا جميعًا إلى رحمة الله.

إلهام: وبعد؟!

أحمد: سندخل ... إن «مارشيه» بالطبع ليس في الداخل؛ فإمَّا أنهم قد انتهوا منه وقضوا عليه، وإمَّا أنه مسجون في مكان ما ...

بو عمير: قد يُلاحظ الجيران ما حدث، ويأتون.

أحمد: لحسن الحظ أن الرعد قد دوَّى، وأقرب جارٍ على بُعد ثلاثة كيلومترات، كما لاحظت عند حضورنا وسوف يظنون الانفجار في السماء، وليس في فيلا «الجاردينيا» ...

وانتظروا لحظات حتى انقشع الدخان، ثم دخل «أحمد» محاذِرًا ... فلم يكن معه سلاح، ومن الممكن جدًّا أن يكون في الداخل من ينتظرهم ... وخلفه دخلت «إلهام» ثم «بو عمير» ...

وجاسوا خلال الفيلا غرفةً غرفة، ولكن لم يكن هناك أحدٌ على الإطلاق ... واختروا غرفة الصالون وجلسوا وقد اشتد البرد، فقال «بو عمير» مقترحًا: لعلنا نجد ما نُعد به بعض أكواب الشاي، فالجو بارد جدًّا!

إلهام: سأتولَّى هذه المهمة!

دخلت إلى المطبخ، وجلس «بو عمير» و«أحمد» صامتَين، لقد أصبحوا في وضع لا يُحسدون عليه ... لقد فقدوا أثر «مارشيه»، وكان في استقبالهم عبوة ناسفة تكفي لتمزيقهم جميعًا ... ولم يحضر «عثمان» و«زبيدة»، وليس هناك وسيلة اتصال برقم «صفر» إلَّا بالوسائل العادية، فيتم الاتصال أولًا بأحد مراكزهم في إحدى العواصم العربية، ويقوم المركز بالاتصال برقم «صفر»، وهذا يعني وقتًا طويلًا، قد تتم خلاله عشرات الأحداث ...

وساد الصمت، حتى عادت «إلهام» بالشاي، وأخذوا يرشفونه في هدوء، وصوت المطر في الخارج وعلى أسطح الفيلا يُؤكِّد سوء الجو ... وكانت «إلهام» تنظر في ثبات إلى صورة معلَّقة على الحائط، بدا فيها شخص يُشبه «مارشيه» كما وصفه رقم «صفر»، وبجواره شخص آخر، واقفَين وخلفهما مشهد حديقة غاية في الجمال ...

وقامت «إلهام» وأخذت تتأمَّل الصورة في تدقيق، وقالت: إنها صورة «مارشيه» في حديقة مع أحد أصدقائه، ومن الواضح أن الصورة قد نُزعت حديثًا من إطارها، ثم أُعيد لصقها مرةً أخرى؛ فهي موضوعة خلف الزجاج وحوافُّها ملصقة بالورق، ولكن الورق حديث جدًّا.

ومدَّت «إلهام» يدها ونزعت الصورة من مكانها، وقلبتها ونظرت إليها جيدًا، ثم قالت: هناك سهم خلف الصورة مرسوم للدلالة على شيء خلفها!

وعادت «إلهام» إلى كرسيها، وقد أثارت اهتمام «أحمد» و«بو عمير» بما قالت، ووضعت كوب الشاي جانبًا، ثم نزعت الورق المحيط بالصورة، وصاحت: هناك رسالة لنا!

ولمعت عينا «أحمد» و«بو عمير»، وبدأت «إلهام» تقرأ: «إلى الأصدقاء القادمين من القاهرة ... إنني أشعر بالخوف فأنا مراقب ... وأنا أكتب هذه الرسالة في الثامنة مساءً، وسألتقي بكم في الصباح، وأخشى ألَّا نلتقي، والوقت ضيق، إذا لم تجدوني، فأرجو الذهاب إلى «لي هال»، واسألوا عن محل «بيير». هناك صديق يتردَّد على المحل يُدعى «بو سعيد»، وهو جزائري يعيش في فرنسا منذ زمن بعيد، وهو قصير القامة، أسمر، له شارب يتدلَّى على فمه، ويضع على رأسه عادةً طاقيةً من الصوف الأخضر الداكن ... مواعيده بين الخامسة والثامنة مساءً، يمكنكم الاعتماد عليه، فعنده معلومات عن مهمتكم ...»

وقال «أحمد» فجأة: اسمعي!

وصمتت «إلهام»، وتنبَّهت حواس الشياطين الثلاثة، ورفع «أحمد» أصبعه يُشير إلى اتجاه الباب، وسمع الثلاثة صوتًا يختلف عن صوت المطر المتساقط ... وبسرعة قام الثلاثة، واختفوا خلف المقاعد التي كانوا يجلسون عليها؛ فقد عرفوا على الفور أن ثمة شخصًا يتقدَّم داخلًا الفيلا. وأخذ كلٌّ منهم ينظر خِلسةً إلى القادم، وسرعان ما ظهر ... ولم يكن سوى «زبيدة» ... كانت مشعثة الشعر، يبدو عليها التعب، وقد أغرقتها مياه الأمطار ...

كانت «إلهام» أول من قفزت، وصاحت: زبيدة!

وأشارت «زبيدة» إلى الخارج، وقالت: «عثمان» ... إننا مطاردون، وقد فقدت أثر «عثمان» في الخارج ... هناك سيارة وأشخاص مسلَّحون ...

قفز «أحمد» و«بو عمير»، وقال «أحمد»: اهتمي بها، وانتظرا هنا ...

أسرعا إلى الباب واندفعا إلى الخارج، ثم توقَّفا لحظات على سُلَّم الفيلا يستمعان. كان صوت المطر قويًّا لا يتبيَّن منه أي شيء، ولكن «بو عمير» أشار إلى الطريق الزراعي، وقال بصوت مرتفع: ما دامت هناك سيارة، فلا بد أن تكون هناك ...

وأسرعا يجريان تحت المطر وعلى الأرض الموحلة، وما كادا يقتربان من الطريق العام حتى سمعا — رغم المطر — صوت طلقات رصاص ... وعلى الفور اتجها إليها، محتمين طول الوقت بالأشجار والمزروعات ... وأطلق «بو عمير» صيحة الوطواط رغم صوت المطر. ودقَّ قلبه عندما سمع قريبًا جدًّا منه وقرب الأرض صيحةً مماثلة، فجرى في اتجاه الصوت،

وشاهد «عثمان» ملقًى على الأرض، وهو يُمسك فخذه ... وعندما أسرع إليه وانحنى ليراه، برز رجل من وسط المزروعات، ورفع يده بمسدس يريد أن يُطلقه، ولكن «أحمد» كان قريبًا منه، وبقفزة رائعة في الهواء كان قد انقضَّ عليه وطرحه أرضًا ...

وعلى الأرض الموحلة دار صراع عنيف، ولكن ضربةً محكمةً من يد «أحمد» أسكتت حركة الرجل ... وقفز «أحمد» إلى المسدس، وفي نفس اللحظة برز رجل آخر من وراء أحد الأشجار، وقبل أن يُطلق مسدسه، كانت طلقة من المسدس الذي استولى عليه «أحمد» قد جعلته يترنَّح، ثم يسقط على وجهه في مياه الأمطار ...

وجرى «أحمد» سريعًا في اتجاه صوت سيارة على الطريق الزراعي، ولكنه عندما وصل إلى حيث كانت تقف وجدها تُسرع مبتعدة، ورفع مسدسه ولكنه لم يُطلقه؛ فقد سمع صوت سيارة أخرى تأتي من الخلف، فأسرع يتوارى، ثم عاد إلى ميدان المعركة ... كان «عثمان» يسير على ساق واحدة معتمدًا على ذراع «بو عمير»، وطلب منهما «أحمد» الاستمرار في السير إلى الفيلا ... ثم اتجه إلى حيث سقط الرجل الأول، وبسعرة فتَّشه واستولى على أوراقه، ثم اتجه إلى الآخر وأخذ مسدسه وأوراقه أيضًا.

بعد قليل كان الشياطين الخمسة يجلسون في الفيلا حول أقداح الشاي، وقامت «إلهام» و«زبيدة» بإسعافات سريعة لساق «عثمان» المصابة، وقالت «زبيدة»: الحمد لله. إن الإصابة بعيدة عن العظم، ولكنها تحتاج لعملية جراحية سريعة لاستخراج الرصاص.

كان «أحمد» منهمكًا في الاطِّلاع على الأوراق التي حصل عليها من الرجلَين اللذَين أصابهما، وقال: ليست هناك معلومات مهمة، وأظن أن الأسماء والعناوين وهمية، ولكن سنحاول متابعة هذه المعلومات قدر الإمكان ... المهم أننا حصلنا على مسدسَين، وأعتقد أنه من الخطورة البقاء في هذا المكان المنعزل أكثر من ذلك، فهناك رجل أو أكثر في السيارة التي هربت، وليس من المستبعد أن يُهاجمونا مرةً أخرى ...

زبيدة: وعثمان؟!

أحمد: سنرى ما يمكن عمله لـ «عثمان»، بعد أن نسمع قصة مطاردتكما!

عثمان: لا تشغلوا أنفسكم بي ... في إمكاني أن أتحامل على نفسي!

أحمد: سيتضح كل شيءٍ بعد أن نُقابل «سعيد» في «لي هال» ... هيا بنا ...

وتساند «عثمان» على «بو عمير»، وخرج الجميع، وكان المطر لا يزال ينهمر مِدرارًا على الحقول الواسعة، فساروا على مهل حتى وصلوا إلى حيث ترك «بو عمير» سيارته، فركبوا فيها وانطلقوا.

ووصلوا إلى مشارف «باريس»، وقال «بو عمير»: لقد نزلت في فندق «فوجيرار»، وهو قريب من برج «إيفل» «والإنفاليد»، ومكانه معقول في وسط «باريس»، هل ننزل معًا؟

أحمد: مؤقَّتًا نعم ... وسنرى بعد مقابلة «بو سعيد»، والمعلومات التي سيُدلي بها كيف نتصرَّف.

ومضت السيارة حتى تجاوزت ميدان «الكونكورد»، ودارت ثم توقَّفت قرب الفندق العتيق، ونزل الخمسة، وتحامل «عثمان» على نفسه حتى لا تبدو إصابته للمارة، ودخلوا الفندق.

ولحسن الحظ وجدوا أماكن كافية، في الدور الرابع والأخير من الفندق.

وعندما تمدَّد «عثمان» على الفراش، التفَّ الجميع حوله ليستمعوا إلى قصة المطاردة، ولكن «عثمان» ابتسم قائلًا: أُريد أن أنام قليلًا، وستروي لكم «زبيدة» ما حدث!

أحمد: فلْيكن ... ولنستمع حتى يحين المساء ونخرج للبحث عن «بو سعيد» ...

تحت المطر عند «نوتردام»

قالت «زبيدة»: كانت البداية عندما نزلنا «روما» ... فقد اعترضنا مصوِّر في ميدان سانتا ماريا مد جوري، ولاحظت أنه صوَّرنا من بعيد، ثم تقدَّم منا، وقال لنا إنه سيلتقط لنا صورةً تذكارية، وقد رجوته أن يأتي معنا إلى نافورة «تريفي» ليلتقط لنا مجموعةً من الصور، وقد سعد بهذا جدًّا ... وهناك بحركة بسيطة، أسقط «عثمان» الكاميرا في مياه النافورة، وتركناه مذهولًا وسرنا ... وبالطبع أدركنا على الفور أننا متبوعان؛ فقرَّرنا تغيير خط سيرنا، وأسرعنا إلى محطة السكة الحديد، وقطعنا تذكرتَين إلى «ستراسبورج»، ثم استأجرنا سيارةً من هناك، طرنا بها عبر الحدود ...

ولكننا أحسسنا أننا مطاردان طول الوقت؛ لقد كانت المراقبة تتم بالتتابع، تركنا مراقب إلى آخر وهكذا، وبدلًا من أن ندخل «باريس» رأسًا، اخترنا الطريق الجنوبي إلى «تروفيل»، ثم أخذنا قطار الليل إلى «باريس»، وفي القطار لاحظنا وجود شخص يقف باستمرار في الممر أمام حجرتنا ... وقد كنا نُحاول تجنُّب الصدام قدر الإمكان، لهذا لم نُحاول التخلُّص منه حتى اقتربنا من «باريس»، فخرج «عثمان» وقد نام كل رُكَّاب القطار، وفاجأ الرجل وكتم أنفاسه، وجرَّه إلى الكابينة، وشددنا وثاقه وكمَّمْناه، ثم نزلنا في محطة الجنوب ...

ولم يكن قد بقي على لقائنا في «فانتيه» إلَّا ساعة فقط؛ لهذا أسرعنا باستئجار تاكسي ... ولكن لم نكد نصل إلى قرب الفيلا، حتى فوجئنا بسيارة تبرز من جانب الطريق، فأسرعت مع «عثمان» وغادرنا التاكسي من الجانب الآخر، بعد أن طلبنا منه الوقوف ونقدناه أجره. وغصنا داخل المزروعات، فأطلق أحدهم النار على «عثمان» وأصابه، فطلب مني «عثمان» الإسراع إليكم ...

وسكتت «زبيدة»، ثم قالت: هذا كل ما هناك ...

أحمد: واضح جدًّا أن «مالمو» لا يُضيِّع وقته! ... إنه يُريد أن يقضي علينا فورًا، كبداية لتحطيم الشياطين الـ «١٣»، ثم يُهاجم المقر السري، ولست أدري إذا كان يعرف طريقه أم لا ... ولكن ليس من المستبعد وهو يُنفِّذ كل هذه المهمات بدقة ومهارة أن يكون قد جمع بعض المعلومات عن المكان، خاصةً وقد أوقع «ش. ٢٨» في براثنه كما نذكر في الجولة الأولى معه في «بيروت».

إلهام: إنه عدو في منتهى الخطورة!

أحمد: وللأسف إننا في موقف سيِّئ.

زبيدة: وكيف سنُحدِّد خطواتنا المقبلة؟ وماذا سنفعل من أجل «عثمان»؟

أحمد: بعد مقابلة «بو سعيد» هذا المساء ...

وبعد أن تناولوا غداءهم أخذوا راحةً طويلةً حتى المساء، ثم خرج «بو عمير» و«أحمد» معًا متجهَين إلى سوق «لي هال» سوق «باريس» الضخم، وبعد أن وصلوا إليه بتاكسي سألا عن محل «بيير» واتجها إليه ...

كان محل «بيير» محلًّا صغيرًا يعكس الطابع الباريسي بأضوائه الخافتة، والمناضد ذات المفارش الحمراء، وقد انقسم إلى جزءين؛ أحدهما للمشروبات والآخر للطعام ...

واختار «أحمد» و«بو عمير» مقعدَين قُرب مدخل المحل، وطلبا كوبَين من العصير وبعض الشطائر، وجلسا يرقبان الجالسين والداخلين، وفي ذهنهما الأوصاف التي كتبها «مارشيه» عن «بو سعيد»؛ قِصر القامة، شارب يتدلَّى على فمه، طاقية خضراء ... والموعد بين الخامسة والثامنة، وقد وصلا في الخامسة بالضبط.

ومضت الدقائق، والقلق يعصف بهما من أجل «عثمان» فهو في حاجة إلى طبيب، ولو ذهبا به إلى أي طبيب وشاهد الرصاصة لأبلَغ البوليس، ودخلوا في أسئلة وأجوبة عن الرصاصة ومن أطلقها ... فلا بد إذن من طبيب متفاهم، يمكن أن يعالج «عثمان» دون أسئلة كثيرة.

وجاء العصير والشطائر، وقبل أن يمد «بو عمير» يده ليتناول كوب العصير، دخل رجل تنطبق عليه أوصاف «بو سعيد»، ونظر إليه «بو عمير» طويلًا، إنه جزائري مثله، وأحسَّ برابطة الدم تجذبه إلى الوجه الأسمر القوي فقام إليه وقال: بو سعيد؟!

نظر إليه الرجل باستفسار، وقد لاحظ لهجته الجزائرية، فمضى «بو عمير» يقول له: «بو عمير»، جزائري ...

ابتسم «بو سعيد» قائلًا: أهلين سيدي!

بو عمير: إننا من طرف ...

ثم تردَّد قليلًا ونظر حوله، فقال «بو سعيد»: هل معك أحد؟

أشار «بو عمير» إلى «أحمد» قائلًا: هذا زميلي!

قال «بو سعيد» هامسًا: انتظراني عند كنيسة «نوتردام دي باري»، بعد نصف ساعة ... ثم رفع صوته، ولوَّح بذراعه قائلًا: آسف يا صديقي ... إنني لا أعرف أحدًا بهذا الاسم!

مضى «بو عمير» إلى «أحمد»، جلس، وتناولا الشطائر والعصير ودفعا الحساب، ثم خرجا، وكانت السماء لا تزال تُمطر ... فقال «بو عمير»: إنه شديد الحذر ... لقد تظاهر بأنه لا يعرف شيئًا، وطلب منا أن نُقابله عن «نوتردام دي باري».

أحمد: إنه معروف في محل «بيير»، ولعله خشي أن يكون مراقبًا.

وانتظرا دقائق حتى عثرا على تاكسي، ثم انطلق إلى حيث الكنيسة الضخمة التي تقع على نهر «السين» وتُطل على جزيرة «باريس» القديمة، وكانت أبراجها المهيبة تقف في الظلام كأشباح عملاقة للتاريخ ... ونزل «أحمد» و«بو عمير» من التاكسي، ووقفا بجوار أحد التماثيل الضخمة يحتميان من المطر، وأمامهما الأشجار الكبيرة التي تقف على ضفة النهر تتمايل بعنف مع الرياح ... وقال «أحمد»: من الصعب أن نتبيَّن «بو سعيد» في هذا الظلام!

بو عمير: فعلًا ... كان من الأفضل أن نُحدِّد مكانًا أكثر وضوحًا!

ونظر «أحمد» إلى ساعته ... كانت السادسة والربع فقال: المفروض أن يصل بعد عشر دقائق.

كانت أضواء الشارع تبدو مختفيةً تحت غلالة من الضباب، والسيارات تمضي مسرعةً مثيرةً حولها الرذاذ، والمارة القليلون يُسرعون الخطو هربًا من الجوف العاصف، وكان أحد رجال الشرطة يمشي ببطء محتميًا من المطر بمعطف ثقيل ...

ومضت الدقائق ثقيلة، وتجاوزت الساعة السادسة وخمسًا وثلاثين دقيقة، ونظر «بو عمير» إلى «أحمد» ووجد وجهه هادئًا، وقطرات المطر المتناثرة قد علقت بشعره، وأحسَّ أنه أخطأ ... ولكن في هذه اللحظة بدا شبح تحت الأشجار المواجهة للكنيسة الضخمة، ثم برز إلى الطريق، ونظر حوله مرات قبل أن يجتاز الشارع ويصل إلى حيث يقفان ...

لم يكن الشبح إلَّا «بو سعيد»، الذي تقدَّم منهما في ثبات رغم المطر الغزير.

وقال: بو عمير ...

ردَّ «بو عمير»: إنني موجود ...

بو سعيد: ماذا تريدان؟

بو عمير: لقد جئنا من طرف «مارشيه».

ساد الصمت الثقيل لحظات، وقال «بو سعيد»: «مارشيه»؟!

وخفق قلب «بو عمير»، هل يُنكر «بو سعيد» معرفته بـ «مارشيه»، ولكن لحظة القلق لم تستمر طويلًا؛ فقد عاد «بو سعيد» يقول: وأين هو «مارشيه»؟

قال «بو عمير»: كان موعدنا معه هذا الصباح في فيلا «الجاردينيا» عند قرية «فانتيه»، ولكن يبدو أننا وصلنا بعد فوات الأوان، فلم نجد «مارشيه»، ولكن وجدنا رسالةً منه خلف صورة له على الحائط، قال فيها أن نطلب منك المساعدة ...

سكت «بو سعيد» لحظات ثقيلة، ثم قال: اتبعاني على مبعدة ...

ومضى يسير على الأرض المبلَّلة، وهما يتبعانه على مبعدة ... وظل «بو سعيد» سائرًا بجوار نهر «السين» نحو عشر دقائق، ثم توقَّف ونظر حوله بإمعان، ثم انحرف يسارًا، ووقف أمام مبنًى قديم، ومدَّ يده في جيبه وأخرج مفتاحًا فتح به الباب، ثم وقف في المدخل، وبدا شبحه واضحًا في النور الخارج من الباب، وأشار بيده فأسرع «بو عمير» و«أحمد» يلحقان به، ودخل الجميع وأغلق الباب ...

كانت هناك رائحة خاصة تُميِّز الأماكن القديمة التي لا تفتح كثيرًا، وأمام الثلاثة امتد دهليز، جدرانه الحجرية قد اهترأت بفعل الزمن، وقد غطته قطرات الماء كأنها عرق، وعلى الأرض الخشبية المتآكلة تناثرت عشرات من الأشياء القديمة ... وأشار لهما «بو سعيد»، فمضيا في الدهليز حتى وصلا إلى باب مغلق، دفعه «بو سعيد» بيده فانفتح على الفور ... وظهرت خلفه غرفة واسعة، وعلى فراش قديم تمدَّد رجل عجوز، قد تغطَّى ببطانية من الصوف الثقيل ... كان أبيض الشعر والحاجبَين واللحية، ضخم الوجه، واسع العينَين ... وقال «بو سعيد»: مساء الخير يا عم ...

ردَّ الرجل بصوت عميق: أسعدت مساءً يا ولدي ...

أشار «بو سعيد» إلى «أحمد» و«بو عمير» وقال: إنهما يطلبان المساعدة ...

ولم يردَّ الرجل العجوز فمضى «بو سعيد» يقول: إنهما من أصدقاء «مارشيه» ...

لمعت في عينَي العجوز نظرة خاطفة، وقال: تفضَّلا.

وأشار إلى مائدة قد صُفَّت حولها بضعة كراسي، وامتدَّت عليها غلَّاية كهربائية يتصاعد منها البخار، وقال العجوز: قدِّم لهما الشاي يا «بو سعيد» ...

ثم نظر إلى «أحمد» و«بو عمير»، وقال: من أين؟

ردَّ «أحمد»: من القاهرة.

هزَّ الرجل رأسه، ثم مدَّ يده وأخرج غليونًا قديمًا ملأه بالدخان، وأخذ يُدخِّن في هدوء ... ثم قال: إن «مارشيه» رجل طيب ... إنه فرنسي ولكنه ساعدنا نحن ثوار الجزائر أيام الثورة، وكان خير عون لنا في تدبير الأسلحة ونقلها إلى بلادنا.

قال «أحمد»: إنه صديق لزعيمنا.

سعل الرجل العجوز، ثم قال: أي مساعدة تطلبان؟

تردَّد «أحمد» لحظات خاطفة، فقال «بو سعيد»: إن عم «الأخضر» عنده جميع المعلومات عن العالم السفلي في «باريس»، وهو وحده القادر على مساعدتكما بالسلاح والرجال ...

قال «أحمد» على الفور: إننا خلف رجل يُدعى «مالمو». إنه يعمل ضد الدول العربية ويُحاول القضاء علينا.

أغمض الرجل العجوز عينَيه ثم قال: «مالمو» ... إنني لم أسمع هذا الاسم من قبل!

تحت الأرض في «باريس»

نظر «أحمد» و«بو عمير» إلى «بو سعيد»، الذي كان منهمكًا في إعداد الشاي، فقال: أنا أيضًا لم أسمع بهذا الاسم من قبل، كل ما عرفته من «مارشيه»، أنكم قادمون لمطاردة مجرم كان له معكم جولات سابقة، ولكن لم يتسع الوقت لأسأله عنه، وكان المفروض أن يتم هذا الحديث بعد حضوركم.

لم يتحدَّث «أحمد» على الفور ... وكانت مشكلة أن يدلي بمعلوماته عن «مالمو» إلى شخصية لم يرَها إلَّا منذ فترة قصيرة، ولا يدري ماذا يمكن أن يحدث، إذا اتضح أنهما مدسوسان على الشياطين ...

وتبادل هو و«بو عمير» النظرات، وفهم «أحمد» من نظرة «بو عمير» أنه لا بد من الإدلاء بالمعلومات، رغم ما في ذلك من مخاطرة.

قال «أحمد»: إن «مالمو» مجرم من طراز جديد ... فهو قارئ أفكار، يستطيع معرفة أية معلومات تدور في ذهن شخص ما، إذا استطاع تحديد مكان هذا الشخص، أو رأى صورته! ... إن عنده قدرةً خارقةً على قراءة الأفكار على مسافة بعيدة، ممَّا جعله أداةً فعَّالة في أيدي العصابات العالمية!

بدت الدهشة على وجه الرجل «العجوز»، والتفت «بو سعيد» وأخذ يستمع باهتمام مشوب بالدهشة ... ومضى «أحمد» يقول: وقد استأجرته مجموعة من العصابات للقضاء على تنظيمنا الذي يعمل أساسًا لحماية الدول العربية من المؤامرات التي تقوم بها الجهات الأجنبية ...

قال «الأخضر»: وهل سبق تعاملكم معه؟

ردَّ «أحمد»: نعم، كان لنا معه جولتان؛ واحدة في «بيروت»، والثانية في «القاهرة»، وقد كان هدفه في المعركة الأولى القضاء على زعيمنا ... وكان هدفه في المعركة الثانية خطف عالم

ذري مصري ... وقد استطعنا إحباط خططه والقضاء على أعوانه. ومعلوماتنا تُؤكِّد أنه نزل أولًا في «صقلية» ثم جاء إلى «باريس». وقد رأى زعيمنا أن نُهاجمه في «باريس» قبل أن يعود للهجوم علينا. وكان المفروض أن نحصل على معلومات وافية عنه من «مارشيه»، الذي لم نجده في المكان المتفق عليه، ووجدنا منه رسالةً أن نلتقي بشخص يُدعى «بو سعيد» في محل «بيير»، وقد قابلنا «بو سعيد» الذي قادنا إليك.

أخذ العجوز يُفكِّر مليًّا، ثم قال: «صقلية» ... مقر عصابة المافيا!

أحمد: هذا ما قصدناه أيضًا!

زم الرجل العجوز شفتَيه، وبدا واضحًا أنه لا يكاد يُصدِّق ما يسمع ... وتذكَّر «أحمد» إصابة «عثمان» فقال مسرعًا: لقد سرَقَنا الحديث ... لنا صديق مصاب برصاصة في فخذه، ونخشى أن نذهب به إلى طبيب حتى لا نتعرَّض لمشاكل!

ردَّ «بو سعيد»: هذه مسألة سهلة ... لنا طبيب صديق ساعدنا أثناء الثورة الجزائرية، ولا يتردَّد في مساعدتنا في أي وقت.

قال «أحمد»: إن صديقنا نائم الآن في فندق «فوجيرار».

بو سعيد: هل يستطيع السير؟

أحمد: بصعوبة!

بو سعيد: لا بأس ... سأُحدِّث الطبيب الآن، ثم كلِّم صديقك ليذهب إليه!

وأمسك «بو سعيد» بسمَّاعة التليفون، وطلب رقمًا ثم انتظر قليلًا، وتحدَّث بالفرنسية إلى شخص ما واستمع قليلًا، ثم التفت إلى «أحمد» قائلًا: سينتظره في خلال ساعة.

أخرج «أحمد» من جيبه بطاقة الفندق، ونظر إلى رقم التليفون، ثم طلب الفندق، وتحدَّث إلى «إلهام» وأملاها العنوان الذي أعطاه له «بو سعيد»، وأحسَّ ببعض الراحة والطمأنينة إلى «بو سعيد» و«الأخضر».

وضع «أحمد» السمَّاعة، ثم التفت إلى «الأخضر» قائلًا: والآن هل ستُساعدنا يا سيدي؟

ردَّ «الأخضر»: إنني لا أدري كيف أُساعدكم ... إنكم عرب مثلنا، وبالطبع سوف نُساعدكم بكل ما نستطيع، المهم كيف؟

ساد صمت لم يكن يقطعه إلَّا صوت إعداد الشاي الذي انتهى «بو سعيد» من إعداده، وبدأ يُقدِّمه ...

ثم قال «أحمد»: إننا جميعًا — وعددنا خمسة — قد تعرَّضنا لسلسلة من المطاردات، ونستطيع وصف الأشخاص الذين طاردونا، وربما أمكن عن طريقهم الوصول إلى مكان «مالمو».

نظر إليه «الأخضر» قليلًا ... ثم قال: لا بأس ... ولكن هذا يستغرق بعض الوقت.

أحمد: أليس أمامنا حل آخر!

الأخضر: هناك حل واحد سريع، أن تضعوا لهم طُعمًا! ...

أحمد: لقد فكَّرتُ في هذا ... أن نبرز إلى الميدان ولكن مع «مالمو»، هذا خطر جدًّا؛ إنه إذا استطاع أن يحصل على واحد منا حيًّا فسوف يتمكَّن من قراءة أفكاره، وببساطة جدًّا سيعرف كل شيء عنا، بما في ذلك علاقتنا بك أنت و«بو سعيد».

أخذ الرجل العجوز يُمشِّط لحيته وهو يشرب الشاي في رشفات متتابعة سريعة، ثم نظر إلى «بو سعيد»، الذي قال: ليس أمامنا إلَّا تنفيذ خطتهم ...

هزَّ «الأخضر» رأسه علامة الموافقة، فأشار «أحمد» إلى «بو عمير» الذي بدأ حديثه قائلًا: جئتُ على الطائرة الفرنسية مباشرةً إلى «باريس»، وقد لاحظتُ أن شخصًا يركب في نفس الصف الذي أجلس فيه يُراقبني، وهو رجل متوسِّط القامة شديد الأناقة يبدو كرجال الأعمال، أبيض اللون، أشقر الشعر، في وجهه نمَش خفيف يتكاثر عند أُذنيه، وسيم يُشبه إلى حد ما الممثل «آلان ديلون»، وقد صوَّرني بآلة تصوير دقيقة تُشبه القلم، وها هي ...

ومدَّ «بو عمير» يده في جيبه فأخرج آلة التصوير، وناولها لـ «الأخضر» الذي تأمَّلها لحظات، ثم قال: إنها عصابة قوية حقًّا ...

بو عمير: أرجو أن تُحمِّضوا الفيلم؛ فقد نجد فيه صورًا غير صوري لها أهمية.

ناول «الأخضر» الكاميرا الرفيعة إلى «بو سعيد»، الذي وضعها في جيبه، ثم بدأ «أحمد» الحديث: أخذنا الطائرة أنا وزميلتي «إلهام» إلى لندن، ولم نلحظ في الطائرة شيئًا غير عادي، ولكن يبدو أننا كنا متبوعَين دون أن ندري، وربما يكونون قد صوَّرونا كما فعلوا مع «بو عمير»، ولكننا لم نُدرك هذا إلَّا عندما قرَّرنا عبور المانش، من «دوفر» إلى «كاليه» بالمركب؛ فقد لاحظت أن وجهًا أو أكثر من الركَّاب الذين كانوا معنا على الطائرة يركبون معنا، وأجريتُ تجرِبةً بسيطةً للتأكُّد، وعرفت على الفور أنهم ثلاثة رجال، أحدهم تبدو كتفه اليمنى أعرض من اليسرى ...

قال «بو سعيد» على الفور: إنني أعرفه!

ساد الصمت بعد هذه الجملة، والتفت الجميع إلى «بو سعيد» الذي قال: إنهم يدعونه «الطحَّان»؛ فهو يستطيع فعلًا طحن أي شيء يقع في يده اليمنى، التي نمت نموًّا غير عادي على حساب يده الأخرى لسبب لا أدريه. وهو ضمن مجموعة من القتلة المأجورين، يعيشون قرب قلعة «كاركاسون» في جنوب فرنسا، حيث يكونون قريبين من موطنهم الأصلي في

«صقلية»، وحيث يهربون بعد عمليتهم ... ومن المؤكَّد أن هذه المجموعة تُمثِّل أقوى وأعتى مجموعة من القتلة المأجورين في أوروبا كلها.

قال «الأخضر»: لقد وضعنا يدنا على طرف الخيط ولكن ...

وصمت قليلًا وهو ينظر إلى «بو عمير» و«أحمد»، ثم قال: ألستما وأصدقاؤكما أصغر من أن تُواجهوا هذه المجموعة القوية من الأشقياء، ومعهم هذا المجرم الفريد «مالمو» الذي لم أسمع عن نظير له من قبل؟!

تبادل «أحمد» و«بو عمير» النظرات ... وابتسم «أحمد» وهو يقول: تستطيع أن تعتمد علينا يا سيدي في أي صراع ... إن ما نحتاجه منك أن تضعنا وراء هؤلاء وتعطينا الأسلحة اللازمة ولا شيء آخر.

الأخضر: لقد ساعدنا «مارشيه» كثيرًا، ونحن متأكِّدون أنه لم يخنكم، وسنعمل معًا من أجل شيئَين ... أولًا أنكم عرب مثلنا، ويجب أن نُساعدكم مهما كان الثمن ... والثاني أن نبحث عن «مارشيه»، فهو فرنسي شريف ساعدنا في وقت المحنة.

وفي هذه اللحظة دقَّ جرس التليفون ورفع «بو سعيد» السمَّاعة، واستمع لحظةً ثم قال مندهشًا: تليفون لك يا «أحمد»!

«أحمد» وهو أشد دهشة: لي أنا؟!

بو سعيد: نعم! وليس في «باريس» إلَّا عدد محدود من الناس يعرف رقم هذا التليفون!

وضع «أحمد» السمَّاعة على أذنه واستمع ... كانت المتحدثة هي «إلهام»، قالت: إنني و«عثمان» في عيادة الطبيب الآن ... وقد حصلت على رقم التليفون من الطبيب بعد جدل طويل ...

ثم سكتت قليلًا، وقالت بصوت متوتر: «أحمد» ... إننا مراقبون، بل أستطيع أن أقول إننا محاصرون!

أحمد: في عيادة الطبيب؟!

إلهام: إنها ليست عيادةً بالمعنى الصحيح، ومن الواضح أنها تُستخدم في الأعمال السريعة فقط، وقد رأيت أحد الرجال الثلاثة الذين كانوا يُراقبوننا أثناء عبور المانش، يحوم حول المكان ونحن داخلون، وليس معنا أسلحة، والطبيب في غاية الاضطراب!

أحمد: سنأتي فورًا.

ثم وضع سمَّاعة التليفون والتفت إلى «الأخضر» قائلًا: إن رجال «مالمو» وفيهم هذا «الطحَّان» ذو الذراع القوية يحاصرون العيادة، وأصدقائي الثلاثة هناك ...

لمعت عينا «الأخضر»، وأشار إلى «بو سعيد» وقال: اذهب معه ... سنرى ما يُمكنكم عمله أيها الشباب.

عاد الثلاثة إلى الدهليز الذي دخلوا منه إلى مخبأ «الأخضر»، وعندما وصلوا إلى منتصفه، أشار «بو سعيد» بالوقوف، ثم حرَّك ما يُشبه ماسورة مياه ممتدَّة على الجدار، فانفتح الحائط عن دهليز مظلم أضاءه «بو سعيد»، وأشار لهما بأن يتبعاه، ثم أغلق بابه خلفهم، ومضى وهو يقول: سنخرج إلى مكان قريب جدًّا من العيادة. إن هذه المجموعة من السراديب الخفية تحت الأرض لا يعرفها سوانا، وقد قمت بعلاج مئات من الثوَّار الجزائريين عبر هذا الطريق ...

كان السرداب متشقِّقًا يكاد ينهار، وأرضه تغمرها المياه، وقد تساقطت بعض أحجاره، وأخذت الفئران المذعورة تجري هنا وهناك أمامهم، والثلاثة يُسرعون في طريقهم إلى نهاية السرداب، ولكن قبل النهاية بقليل أشار «بو سعيد» لهما بالتوقُّف، وأخرج من جيبه سلسلةً من المفاتيح اختار منها مفتاحًا، ثم اقترب من باب في الجدار وأولج المفتاح وفتح الباب ...

مطاردة عنيفة ومفاجأة مذهلة

لم تكن الغرفة التي فتحها «بو سعيد» إلَّا مخزنًا للأسلحة، ولكنها كما لاحظ «أحمد» و«بو عمير» لم تكن أسلحة متطوِّرة؛ كانت مجموعةً من البنادق سريعة الطلقات والمسدسات والخناجر ... ولم يكن هناك وقت للحديث، مدَّ كل واحد منهم يده وتناول بندقية، ثم أسرعوا خارجين، ومضوا في الدهليز حتى نهايته، وقال «بو سعيد»: سنصعد الآن في مخزن قديم، يقع تحت العيادة مباشرة ...

وصعدوا سلَّمًا صغيرًا من الحجر، ثم مدَّ «بو سعيد» يده وأخذ يدفع بابًا من الخشب السميك، ارتفع تدريجيًّا مُحدثًا صوتًا حزينًا في الصمت الذي يلف المكان ... وبعد أن صعد «بو سعيد»، تبعه «أحمد» ثم «بو عمير»، وأُعيد غلق الباب ...

كان المخزن مملوءًا بالبراميل القديمة، تتصاعد منه رائحة تُزكم الأنوف، وتمرح في جوانبه الفئران الضخمة، وقد ضغط «بو سعيد» على زر في الجدار؛ فأُضيئت لمبة صغيرة في السقف بدَّدت بعض الظلمات التي ترين على المخزن.

مضى «أحمد» و«بو عمير» يتبعان «بو سعيد» الذي تقدَّم من باب في الجدار، وفتحه بمفتاح معه، ووجدوا سُلَّمًا صعِدوه إلى فتحة في الجدار، دخلوا منها ووجدوا أنفسهم في دهليز آخر، وقال «بو سعيد»: العيادة في نهاية الدهليز.

ثم وضع أصبعه على فمه محذِّرًا من الحديث، وتقدَّموا مسرعين، ولكن دون إحداث أي صوت ... ووقفوا أمام باب صغير دقَّه «بو سعيد» عدة دقات، ولكن لم يستجِب أحد ...

وأسرع «أحمد» يضع أذنه على الباب ثم قال: هناك صراع في الداخل ...

واندفع الثلاثة بأكتافهم فنزعوا الباب من مكانه، وكان أمامهم مشهدٌ لا يُنسى ... كان «عثمان» مشتبكًا مع رجل في صراع مستميت، وقد غطَّى فخذه المصابة بالشاش والقطن، ورغم آلامه فلم يستطِع الرجل أن يهزمه ... ودون كلمة واحدة هبطت البندقية السريعة

الطلقات على رأس الرجل في خبطة واحدة، سقط على أثرها كالجثة الهامدة، وقال «عثمان»: «إلهام» على السلَّم ...

وقفز «أحمد» واجتاز باب العيادة، وعلى السلَّم الموصل إلى الشارع كانت «إلهام» بين رجلَين يحاولان حملها ... وطار «أحمد» وهبط على الرجلَين، وكانت لكمة أصابت فك الرجل كالمطرقة ... وأطلق الرجل الآخر رصاصةً من مسدس كاتم للصوت، أحسَّ بها «أحمد» تمر بجوار رقبته، ولكن الرجل لم يُطلق الرصاصة الثانية؛ فقد أصابته قدم «إلهام» بركلة هائلة في بطنه، جعلته يُطلق صيحة ألم مرعبة، ثم ينزل متدحرجًا على السلَّم!

وقالت «إلهام»: من الأفضل العودة من نفس الطريق الذي جئتم منه؛ فيبدو أن هناك رجالًا آخرين في الخارج!

صعدا السلم معًا ... ووجدا «بو سعيد» و«بو عمير» يساعدان «عثمان» ويعاودان ربط فخذه المصابة، وقال «أحمد»: هل أجريت العملية؟

عثمان: نعم، منذ دقائق ... ولم يكد الطبيب ينتهي حتى وجدناهم يقتحمون الباب، وقد هرب الطبيب من أحد الأبواب، ولا أدري إذا كانوا قد لحقوا به أم لا.

بو عمير: وزبيدة؟!

عثمان: تركناها في الخارج، ولا أدري ما حدث لها!

بو سعيد: هيا بنا، فقد يعودون ...

وساروا مرةً أخرى في الدهليز نزولًا إلى المخزن، ثم ساروا حتى وصلوا إلى «الأخضر» الذي كان قد ارتدى ثيابه، وأخذ يُعد مسدسًا ضخمًا من طراز عتيق ... ابتسم «الأخضر» عندما رآهم، وأسرع «أحمد» إلى التليفون واتصل بفندق «فوجيرار»، ولكن «زبيدة» لم تكن هناك ...

تمدَّد «عثمان» على الفراش، وقد نزف كثيرًا من أثر المجهود الذي بذله، وبدا متعبًا شاحبًا ... وجلس «أحمد» صامتًا يُفكِّر، وقال «الأخضر»: ماذا حدث؟ وروى «بو سعيد» المعركة القصيرة التي جرت في عيادة الطبيب ...

وفي هذه الأثناء كانت «زبيدة» تتعرَّض لمطاردة قاسية. لقد تركوها خارج العيادة لتراقب الطريق، وشاهدت المتسلِّلين وهم يدخلون الحارة الصغيرة، وكانت تجلس في السيارة التي استأجرها «بو عمير»، وقد تركت المحرِّك دائرًا استعدادًا للطوارئ. وكان المطر لا يزال يهطل بشدة والجو عاصفًا، فلم تسمع صوت أقدام الرجل الذي اقترب منها، ثم دفع بمسدسه في وجهها قائلًا: لا تتحرَّكي!

كانت لحظةً ممتلئةً بالخطر والتحفُّز ... وكانت «زبيدة» تُدرك خطورة أن تستسلم، ولو كانت في مواجهة عصابة أخرى غير عصابة «مالمو» لما تردَّدت في الاستسلام، على أمل أن تفعل شيئًا بعد ذلك ... ولكن مع «مالمو»، فإن الاستسلام يعني سقوط الشياطين جميعًا ... وربما رقم «صفر» بعد ذلك!

لهذا كان قرارها الوحيد والذي يُعرِّضها للموت هو الضغط بقوة على بدَّال البنزين، والانطلاق بالسيارة كالصاروخ رغم الأرض الزلقة ... وقد أدَّى هذا الانطلاق المفاجئ إلى إصابة الرجل في ذراعه بخبطة قوية، فلم يتمكَّن من إطلاق الرصاص، ولكنه أشار إلى سيارة أخرى كانت واقفة، فانطلقت كالسهم خلف «زبيدة» التي لم تكن تعرف شوارع «باريس» جيدًا، وكل ما كان في إمكانها أن تفعله هو أن تبتعد بأقصى سرعة، وهي تتبع الإشارات الخضراء دون أن تدري إلى أين تقودها ...

ظلَّت المطاردة في حدود السرعة المعتادة داخل المدن، حتى وجدت نفسها قريبةً من «فرساي»، حيث يلتف الشجر، وتتزايد الظلمة بعيدًا عن وسط المدينة، فأطلقت لسيارتها العنان، وأخذ عدَّاد السرعة يقفز بين رقم ١٣٠ إلى ١٥٠ كيلومترًا في الساعة ... ولكن عدَّاد السرعة لم يكن هو ما يشغلها في هذه اللحظة، ولكنه كان عدَّاد البنزين؛ فلقد كان واضحًا أن بنزين السيارة سينفد بعد دقائق قليلة، خاصةً وقد بدأ صوت المحرِّك يُصاب بالخشونة والتردُّد، ولم يعد هناك شك أن المطاردين سيلحقون بها، ولم يكن معها سلاح ... وكان عليها أن تتخذ خلال دقيقة على الأكثر قرارها، ولم يكن أمامها إلَّا قرار واحد.

أخذت تخفض من سرعة سيارتها بشكل غير محسوس، وبدأت المسافة تضيق بينها وبين المطاردين، إلى عشرين مترًا، خمسة عشر مترًا، عشرة أمتار، خمسة أمتار، أقل من ثلاثة أمتار ... كانت سرعتهم لا تقل عن ١٢٠ كيلومترًا، بينما سرعتها تقل عن ٨٠ كيلومترًا، وكانت هذه هي خطتها ... داست على الفرامل بكل قوتها، وأدارت المقود جانبًا، ثم ألقت بنفسها على المقعد الذي بجانبها ... وحدث ما توقَّعته تمامًا؛ اصطدمت السيارة التي خلفها بسيارتها صدمةً مروِّعة، ودارت السيارة بها واندفعت إلى داخل غابة أشجار «فرساي» الكثيفة، واصطدمت بشجرة ثم توقَّفت ... وفتحت الباب وقفزت، وفي لمحة سريعة وجدت سيارة المطاردين وقد انقلبت على جانبها ... وسمعت صوت صياح، فأخذت تجري متوغِّلةً في الغابة دون أن تدري إلى أين تتجه ... كان كل ما يُهمُّها في هذه اللحظة أن تبتعد بقدر ما تستطيع عن رجال العصابة.

بعد نحو ربع ساعة من الجري المتواصل، وجدت نفسها تسير بجوار محطة «بالاراد»، وهي نهاية خط مترو «الأنفاليد»، ونظرت حولها فلم تجد ما يُريب، فدخلت المحطة وقطعت

تذكرة، ثم نزلت على السلالم المتحركة إلى جوف الأرض حيث يسير المترو. وأحسَّت بآلام مبرحة في عظامها، ولكنها كانت سعيدةً أن استطاعت التخلُّص من المطاردة المميتة!

وصل المترو، كان فارغًا تقريبًا في هذه الليلة المظلمة المطيرة، فألقت نفسها على أقرب مقعد ونظرت حولها، ثم أغمضت عينَيها تطلب بعض الراحة ...

ومضى المترو يشق طريقه في النفق بسرعة، وكلما توقَّف في محطة فتحت «زبيدة» عينَيها ونظرت إلى القادمين، ثم أعادت إغماضهما، حتى توقَّف المترو في المحطة النهائية عند «الأنفاليد»، فقامت وغادرت المترو وصعدت إلى سطح الأرض مرةً أخرى ...

كانت الأمطار قد خفَّت كثيرًا ولم يبقَ إلَّا رذاذ خفيف، وأحسَّت أنها جائعة، ووجدت نفسها قريبةً من أحد أكشاك السجائر، فاتصلت تليفونيًّا بفندق «فوجيرار» تسأل عن زملائها، ولكن أحدًا منهم لم يكن قد وصل بعد، فأحسَّت بقلق شديد ...

ماذا حدث في العيادة الغريبة قرب «السين»؟ هل تعود إلى الفندق مرةً أخرى أم تنتظر؟ وقرَّرت أن تتناول عشاءها أولًا، ثم تُقرِّر بعد ذلك ما تفعل ... ووجدت أحد مطاعم الدور الثاني بالبرج مضاءً فصعدت، واختارت مكانًا منزويًا، ثم طلبت عشاءها وجلست تتأمَّل «باريس».

بعد فترة جاءها العشاء، وأخذت تتناوله بشهية وقد أحسَّت بتعبها يزول تدريجيًّا، وتمنَّت لو كان بقية الشياطين معها.

وبينما كانت ترفع إلى فمها الملعقة، وقبل أن تصل إلى فمها، رأت ما لم تكن تتصوَّر على الإطلاق أن تراه ... كان «مالو» يدخل المطعم ومعه رجل آخر، عرفت على الفور أنه أحد الرجال الذين طاردوها هي و«عثمان» في «روما»!

أحسَّت «زبيدة» بيدها ترتعد وبالملعقة تكاد تسقط منها، ولكنها تتمالك نفسها وتضع الملعقة وتُفكِّر سريعًا ... كيف تتصرَّف؟!

كان «مالو» يجلس قبالتها مباشرة، ولكن لحسن الحظ أنها كانت تجلس في ركن خافت الإضاءة، وفكَّرت أنه على كل حال لم يرَها من قبل، ولن يستطيع التعرُّف عليها ...

وأخذ ذهن «زبيدة» يعمل بسرعة البرق ... إن الرجل الذي جاءوا للبحث عنه، قارئ الأفكار الخطير، وزعيم العصابة التي تُحاول القضاء عليهم، أمامها ... على بعد خطوات قليلة ... فماذا تفعل؟!

صراع على شاطئ «السين»

كواحدة من الشياطين الـ «١٣»، أدركت «زبيدة» أن هذه فرصتهم الوحيدة قبل أن يذوب «مالمو» في «باريس» ولا يعثرون له على أثر، ولم يكن يدور في ذهنها أي تردُّد في الاستعداد للتضحية بنفسها في سبيل القضاء عليه!

وشاهدت «الجرسون» ينحني أمام «مالمو» وزميله، وأخذ «مالمو» يقرأ قائمة الطعام، فعرفت أن أمامها وقتًا يتراوح بين نصف ساعة وأربعين دقيقة، فقرَّرت أن تستغل كل ثانية، فنظرت حولها حتى عرفت مكان التليفون ... لقد قرَّرت أن تتصل بالشياطين مرةً أخرى قبل أن تتصرَّف، ثم رسمت خريطةً سريعةً للمكان في ذهنها، بحيث تستطيع المرور بين الموائد دون أن يُشاهدها «مالمو»، وقامت واقفةً واتجهت إلى جهاز التليفون، وطلبت فندق «فوجيرار» مرةً أخرى، ودقَّ قلبها سريعًا عندما ردَّت عاملة التليفون، وسألتها عن اسمها فقالت «زبيدة» ... قالت الفتاة: هناك رسالة لك يا آنسة ... إن شخصًا يُدعى «أحمد» يطلب منك الاتصال به في هذا الرقم ...

ثم أملتها رقمًا حفظته «زبيدة» على الفور، فقد كان حفظ الأرقام ضمن التدريبات التي تلقَّوها في المقر السري، وشكرت العاملة ثم أدارت قرص التليفون، وردَّ عليها صوت يتحدَّث الفرنسية بلكنة مختلفة، وعرفت على الفور أنه لا بد أن يكون «بو سعيد»، ولكن على سبيل الحذر قالت بالعربية: أنا «زبيدة» ... وسمعت «بو سعيد» يقول: نعم يا آنسة، أنا «بو سعيد» ... ونحن قلقون عليكِ ...

زبيدة: إنني على ما يرام، شكرًا ... هل أستطيع أن أُكلِّم «أحمد»؟

بو سعيد: لحظة واحدة ...

كانت «زبيدة» تتحدَّث وعيناها على «مالمو» وهو جالس يتحدَّث مع زميله، ولم يكن الطعام قد وصل بعد ... وسمعت صوت «أحمد» يقول: «زبيدة» ... أين أنتِ؟!

قالت: كيف حالكم؟

أحمد: نحن على ما يرام، وأنتِ؟

زبيدة: على ما يرام أيضًا، المهم ... إن «مالمو» أمامي الآن!

لم يردَّ «أحمد» على الفور، وعرفت أنه في غاية الدهشة ... ثم قال: هل أسروك؟!

ولم تتماسك «زبيدة» نفسها من الضحك ... لقد تصوَّر «أحمد» أنهم أسروها، وأنهم يُجبرونها على الكلام فقالت تطمئنه: لا ... لقد حاولوا، ولكني تركت ثلاثةً منهم في سيارة مهشَّمة بالقرب من «فرساي»!

أحمد: إذن أين أنت وأين «مالمو»؟

زبيدة: إنه يجلس الآن في أحد مطاعم الطابق الثاني من برج «إيفل» ينتظر العشاء ومعه أحد الرجال الذين طاردوني أنا و«عثمان» في «روما» ...

أحمد: هل تبعته إلى هناك؟

زبيدة: أبدًا ... كنت جائعةً وقرَّرت أن أتناول عشاءً هادئًا في البرج، ولكن «مالمو» دخل منذ دقائق.

ساد الصمت لحظات ثم قال «أحمد»: يجب أن ننتهز هذه الفرصة!

زبيدة: هذا ما فكَّرت فيه، ولكن المهم كيف ...؟!

أحمد: انتظري لحظات!

كانت عيناها تتابعان «مالمو» وزميله الذي أخرج من جيبه خريطة، وأخذ يُشير إلى عدة أماكن فيها، و«مالمو» يُتابعه ... وفكَّرت «زبيدة» أنهما يتحدثان عن مكان العيادة حيث دارت المعركة، وربما يضعان خطةً للهجوم ...

ومرَّت ثوان، وثوان، ووصل الطعام إلى «مالمو» وزميله ... وعرفت «زبيدة» أن الوقت يمضي سريعًا، فأخذت تقول: ألو، ألو ... خاصةً وقد وقف شخص خلفها يُريد استعمال التليفون ... وأخيرًا سمعت صوت «أحمد» يقول: «زبيدة» ... إن قرارنا سيُعرِّضك لمخاطر ضخمة!

زبيدة: دعك من المخاطر والمخاوف، ما هي الخطة؟

أحمد: نُريدك أن تستدرجي «مالمو» إلى مكاننا!

زبيدة: أين أنتم؟

أحمد: إننا جميعًا ومعنا «بو سعيد» وصديق يُدعى «الأخضر» في سرداب تحت الأرض ليس بعيدًا عن البرج، وللأسف إن الأسلحة الموجودة قليلة، ومن نوع قديم، ولا تُصلح مع هؤلاء ... لهذا لا بد من استخدام الحيلة والحذر.

زبيدة: وما هو المطلوب مني بالضبط؟

أحمد: راقبي «مالمو» حتى ينتهي من عشائه، وعندما يُحاول الانصراف قومي أنت أيضًا واتركيه يراك وسوف يتبعك على الفور، ثم سيري بجوار نهر «السين» في اتجاه كاتدرائية «نوتردام»، وعند الباب الرئيسي المطل على النهر قفي هناك ... واتركي الباقي لنا!

زبيدة: سأقوم بتنفيذ المطلوب مني!

أحمد: سأحضر أنا و«بو عمير» فورًا، فعن طريق السراديب التي تحت الأرض يمكن أن نصل إليك في دقائق، وسنتبع «مالمو» وزميله من بعيد، ولكن ...

زبيدة: ولكن ماذا؟

أحمد: إذا أحسست بخطر عاجل فلا تتردَّدي في الفرار واتصلي من أي مكان برقم التليفون، وستجدين من يرد عليك؛ فـ «الأخضر» لا يُغادر مكانه إلَّا نادرًا، و«عثمان» لا يستطيع الحركة الآن.

زبيدة: فهمت ... إلى اللقاء!

وضعت «زبيدة» السمَّاعة وعادت إلى مكانها من نفس الطريق، وجلست ترقب «مالمو» وزميله وهما يتناولان طعام العشاء ... ثم ظهر رجل ثالث اتجه إلى حيث يجلس الرجلان، ومال عليهما وأخذ يتحدَّث مشيرًا بيدَيه، ولم تشك لحظةً في أنه يروي ما جرى في العيادة، والمطاردة التي كانت هي أحد طرفَيها ... ورأت «مالمو» يمسح يدَيه في الفوطة بعصبية ثم يُلقي بها على المائدة، ويتحدَّث وقد احتقن وجهه وهو يُشير بيدَيه!

كان حضور هذا الرجل يُمثِّل تطوُّرًا مفاجئًا في الموقف لم يكن في الحسبان، وكان على «زبيدة» أن تُعاود الاتصال، ولكن الأحداث لم تسمح لها ... فقد قام «مالمو» من مكانه غاضبًا، وبدأ يتحرَّك خارجًا، بينما كان زميله يدفع الحساب، ولم يكن أمام «زبيدة» إلَّا أن تتصرَّف حسب الخطة المتفق عليها، فأسرعت هي الأخرى تدفع الحساب، ثم تحرَّكت إلى وسط المطعم متظاهرةً أنها لا ترى «مالمو» وزميلَيه، بينما كانت ترمق بطرف عينها الرجال الثلاثة، وقد حدث ما توقعته تمامًا ... فقد أمسك الرجل الذي طاردها هي و«عثمان» في إيطاليا بذراع «مالمو»، الذي التفت إليه في ضيق، وأشار الرجل بيده الثانية إلى «زبيدة»، وهمس في أذن «مالمو» بكلمات؛ تغيَّر بعدها لون وجه «مالمو» على الفور ... وسارت «زبيدة» بهدوء وأخذت طريقها إلى خارج المطعم، وكانت تستطيع دون أن تلتفت خلفها أن تُدرك أن الرجال الثلاثة يتبعونها؛ فقد كان صوت أقدامهم المسرعة واضحًا على ممرات البرج الحديدية ...

وصلت «زبيدة» إلى الشارع ومشت في طريقها إلى نهر «السين»، ورغم محاولتها البحث عن «أحمد» و«بو عمير» فلم تجد لهما أثرًا، وقد كانت شبه متأكِّدة أنهما لم يتمكَّنا من الوصول إلى البرج في هذا الوقت القصير … ومضت بخطو بطيء محاولةً كسب الوقت، وفي منعطف طريق سمعت صوت أقدام مسرعة حولها، وأحسَّت بشخص يجذبها من ذراعها محاوِلًا شدَّها إلى الشارع الجانبي. وكانت مسألة سهلة بالنسبة لها أن تتخلَّص منه؛ فقد أمسكت بالذراع التي امتدَّت إليها بسرعة خارقة، ثم ثنتها على كتفها حتى سمعت طرقعة العظم في أذنها، وانحنت إلى الأمام، فدار الرجل فوق كتفها، وارتفعت ساقاه في الفضاء، ثم نزل على الأرض في سقطة داوية لم يستطِع القيام منها! …

وعلى الضوء الخافت الذي يتسلَّل من ضباب شتاء «باريس» البارد، لمحت «زبيدة» في حزام الرجل الممدَّد على الأرض مسدسًا يلمع، وكان هذا كل ما تتمناه في هذه اللحظة، فانحنت بخفة وجذبت المسدس، ومضت في طريقها كأن لم يحدث شيء، ولكن فجأةً تذكَّرت شيئًا خطيرًا … إن «مالمو» خلفها، و«مالمو» ليس مجرمًا عاديًّا يتم التعامل معه بقوة العضلات أو برصاص المسدسات، ولكنه قارئ الأفكار … وفي إمكانه الآن أن يقرأ ما تُفكِّر فيه، ولعله قرأه فعلًا!

أخذت «زبيدة» تُسرع الخطو بدلًا من البطء الذي كانت تتعمَّده، محاوِلةً إبعاد أفكارها عن الشياطين الـ «١٣»، والخطة المتفق عليها مع «أحمد»، ولكن عبثًا حاولت … كان الموقف متوتِّرًا كله، ولم يكن في إمكانها إلَّا أن تُفكِّر فيما تفعله، وما يفعله الشياطين الأربعة في هذا الوقت!

وفجأةً سمعت خلفها مرةً أخرى صوت أقدام، ولكنها في هذه المرة لم تكن لرجل واحد، كانت أقدام كثيرة، ولم يكن أمامها إلَّا أن تلتفت خلفها، ورأت على الأضواء التي يلفها الضباب صراعًا ينشب بين مجموعة من الرجال، وبعض المارة على الجانب الآخر من الشارع قد توقَّفوا ينظرون … وأدركت — رغم بُعد المسافة نسبيًّا — أن بين المتصارعين «أحمد» و«بو عمير» … ولم تتردَّد «زبيدة» فمضت بأقصى سرعتها عائدةً إلى حيث كانت المعركة، وشاهدت «أحمد» يُهاجمه رجلان من الجانبَين، وهو يتراجع في انتظار فرصة للانقضاض عليهما، وبثلاث قفزات متتالية كانت قد وصلت إلى مكان الصراع، وضربت أقرب الرجلَين إليها بحذائها ضربةً فنيةً تُصيب الساقين في وقت واحد، فترنَّح الرجل وسقط! … وقفز «أحمد» على الرجل الآخر، وشاهدته «زبيدة» وهو يرفعه إلى فوق ويقذفه على رجل آخر كان يستعد في هذه اللحظة لإطلاق الرصاص!

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت صفَّارات رجال البوليس، وصوت سيارة تُطلق بوقها المرتفع بانتظام، فأدركت أن البوليس الفرنسي يتدخَّل، وصاح بها «أحمد»: اهربي! وأسرعت تجري واختفت قرب شجرة، ووجدت «بو عمير» يُقبل عليها، وقال لها: تعالَي خلفي ... إن باب السرداب قريب!

مضت خلافه في الظلام، ولم تتمالك نفسها من أن تنظر خلفها، وشاهدت رجال البوليس في مكان المعركة التي خلت بسرعة من المتعاركين، عدا الذين سقطوا ... وبعد دقائق قليلة وجدت «بو عمير» يدق بابًا بطريقة معيَّنة، ثم وجدت نفسها تنزل سلالم قديمة ترشح بالماء، وقال «بو عمير»: هذا هو السرداب السري!

نزلا مسرعَين، ولحسن الحظ وجدا «أحمد» قد سبقهما بخطوات، ولحق بهما «بو سعيد» الذي فتح لهما الباب ...

وظل الثلاثة يسيرون حتى وصلوا إلى حجرة «الأخضر»، وفي جانب منها كان «عثمان» وبجواره «إلهام» ...

وقبل أن يتحدَّث «أحمد» قالت «زبيدة»: إن هذا المكان لم يعد مأمونًا ... لقد رأيت «مالمو» يتحدَّث مع أحد رجاله وأمامهما خريطة، لا أشك لحظةً أنها لـ «باريس» ... ومن المؤكَّد أنهما كانا يُحدِّدان مكاننا. وبعد المعركة التي جرت الآن، سيتمكَّن «مالمو» من الوصول إلينا حالًا!

النظرة الأخيرة

ساد الصمت بعد ما قالته «زبيدة»، ثم قطع الصمت صوت «بو سعيد» قائلًا: لا أظن أنهم سيهاجموننا الآن ... إن وجود الشرطة سوف يمنعهم.

ولكن لم يكد «بو سعيد» ينتهي من جملته، حتى قفزت «إلهام» من مكانها وصاحت: اسمعوا!

ولزموا الصمت جميعًا ... وسمعوا بما لا يدع مجالًا للشك صوت هدير بعيد، كأن آلافًا من الفئران تجري في سراديب المخبأ الذي يجلسون فيه ... وأخذ الصوت يرتفع دون أن يعرفوا ما هو، ثم قال «بو سعيد»: لعلها سيارة شحن ثقيلة تمر فوقنا.

ولكن «إلهام» قفزت من مكانها، وقالت: هل تشعرون بتيار هواء قادم من هذا الاتجاه؟!

وأشارت إلى فتحة من فتحات الدهاليز التي تتفرَّع من الغرفة التي يجلسون فيها ...

وقال «أحمد»: نعم، إنني أُحس به!

وأسرعت «إلهام» وخلفها «أحمد» إلى فتحة الدهليز وغابا فيه، وبعد لحظات عادا جريًا، وقال «أحمد»: إننا مهدَّدون بالغرق!

بو عمير: كيف؟!

أحمد: لا أدري!

ثم وجَّه كلامه إلى «الأخضر» قائلًا: هل هناك سرداب يُؤدِّي إلى نهر «السين»؟

ردَّ «الأخضر» وقد تغيَّر وجهه: نعم ... إنه السرداب الذي دخلت منه ... وهناك سرداب آخر.

وأشار إلى جانب مغلق في الحائط.

قال «أحمد»: لقد فتحوا نهاية السرداب، ومياه «السين» تتدفَّق داخله ... وفي دقائق قليلة سوف يغرق هذا المكان!

ولم يكد «أحمد» ينتهي من جملته حتى بدت خيوط من المياه كالثعابين تتلوَّى داخله!

وصاح «أحمد»: عثمان ... هيا!

وقفز «أحمد» إلى جوار «عثمان» وأخذ يُساعده على الوقوف، وارتفعت الأصوات وهم يُسرعون إلى السرداب الذي يُؤدِّي إلى العيادة، ولكنهم بعد أن صعدوا السلم فوجئوا بمدخل الدهليز مغلقًا، وحاولوا فتحه ولكن عبثًا ... وكان واضحًا أن عصابة «مالمو» قد وضعت شيئًا ثقيلًا عليه ... فعادوا جريًا إلى الغرفة، وكانت نظرة واحدة إليها تُؤكِّد لهم أن موتهم غرقًا أمر لا مفر منه؛ فقد ارتفعت المياه في دقائق قليلة إلى ارتفاع ربع متر تقريبًا، وأخذت تجرف كل ما تُقابله من قطع الأثاث وغيره!

قال «الأخضر» وقد بدت على ملامحه علامات الضيق والتحدي: ليس أمامنا إلَّا السرداب الآخر المؤدي إلى النهر، وهناك قارب بخاري يمكن أن نهرب به!

وأخذ «الأخضر» و«بو سعيد» يحاولان فتح باب السرداب ... كان الباب قديمًا وقد التصق بالحائط كأنه قطعة منه ... وبدا واضحًا أن جهود الشيخ العجوز والشاب هي مجرَّد عبث، فقال «أحمد»: أخرجوا المسدسات التي معكم! وظهرت ثلاثة مسدسات في يد «بو عمير» و«أحمد» و«زبيدة»، وكانت هناك بندقية سريعة الطلقات معلَّقةً على الحائط، خطفها «بو سعيد» ... وقال «أحمد»: صوِّبوا واضربوا الباب!

وارتفع في الغرفة ضجيج طلقات الرصاص وكأنها معركة ... وانهالت الرصاصات على جانب الباب كالسيل المنهمر، ثم قال «أحمد»: والآن ... احملوا فراش «الأخضر» وسنضرب به الباب!

كانت مياه النهر تتسرَّب بسرعة وحشية إلى الغرفة، وقد أخذت ترتفع حتى تجاوزت نصف المتر. وحمل «أحمد» و«بو عمير» و«بو سعيد» الفراش الحديدي، وعادوا إلى الخلف خطوات ثم انقضُّوا على الباب بكل قواهم فانفتح الباب بعد أن أخذ معه جزءًا من الجدار المهترئ، فاندفعوا جميعًا إلى السرداب، وأخذوا يجرون محاولين سبق المياه التي كانت تتبعهم في جنون، كأنها في سباق معهم! ...

أخذوا يجرون، وارتفعت في جنبات السرداب أصوات الفئران التي أخذت تتخبَّط في أقدامهم، والمياه تجري خلفهم ... و«عثمان» يعرج معتمدًا على ذراع «أحمد» ...

واستمر السباق نحو عشر دقائق، ثم وصلوا إلى نهاية الدهليز، وللمرة الثانية واجهتهم مشكلة فتح الباب المؤدِّي إلى مرساة القارب البخاري، فقال «أحمد»: الرصاص أولًا، ثم استخدموا أكتافكم!

وانهالت طلقات الرصاص على جانب الباب، ثم استجمع «أحمد» و«بو عمير» و«بو سعيد» قوَّتهم وانقضُّوا على الباب بأكتافهم، وتزلزل الباب من مكانه، وسقط مع كومة من الأحجار، وقال «الأخضر»: إنه لم يُفتح منذ خمس عشرة سنة!

صعد الجميع مسرعين إلى حيث مرسى القارب. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، والجو شديد البرودة، والضباب يُغطِّي وجه النهر …

قالت «إلهام»: المهم أن يسير القارب!

قال «بو سعيد»: إنني أتنزَّه به كل أسبوع في يوم الأحد!

وقفزوا إلى القارب … كان صغيرًا فانحشروا في مقاعده القليلة، وقام «بو عمير» بإدارة المحرِّك، ولحسن الحظ دار المحرك، وبدأ القارب يتحرَّك مغادرًا الشاطئ، ولكن لم يمضِ سوى أمتار حتى ظهر في الضباب الكثيف ضوء كشَّاف قوي، أخذ يدور لحظات ثم استقر على القارب الصغير … وأدار «بو سعيد» مقدَّم القارب بمهارة ثم اندفع مبتعدًا، ولكن ضوء الكشاف سرعان ما أحاط بهم مرةً أخرى، وبدا واضحًا أنه يصدر من قارب آخر أكثر ارتفاعًا … هل كان قارب رجال الشرطة؟ قال «أحمد»: دُر مرةً أخرى واقترب منهم في شكل دائرة، وأوقف المحرك … إنهم يتمكَّنون من متابعتنا على صوت المحرِّك.

نفَّذ «بو سعيد» تعليمات «أحمد»، فأوقف المحرِّك عن العمل، ثم دار بالقارب دورةً واسعةً مقتربًا من مصدر الضوء في شكل نصف دائرة، وبحيث يقتربون من جانب القارب دون أن يصل إليهم ضوء الكشَّاف … وقد نجحت المغامرة وأصبح قاربهم الصغير بجوار القارب الكبير على الجانب الأيمن، دون أن يتمكَّن من في القارب الكبير من رؤيتهم؛ بسبب الضباب الكثيف الذي كان يُغطِّي سطح النهر … وكانت لحظات خطرة تحتاج إلى قرار، فقال «أحمد»: سيصعد الشياطين إلى سطح القارب المعادي عدا «عثمان»، وعلى الباقين الانتظار ساعةً بالضبط من لحظة صعودنا إلى السطح … ثم ينصرفون إذا لم نظهر!

بو سعيد: سأنضم لكم!

أحمد: إن بقاءك هنا لا يقل أهمية؛ فسوف نحتاج لك إذا اضطُررنا إلى الانسحاب.

واقترب القارب الصغير في الضباب الكثيف، حتى التصق بالقارب الكبير، واستعد الشياطين الأربعة؛ «أحمد» و«بو عمير» و«إلهام» و«زبيدة»، وقد حمل كلٌّ من «أحمد»

و«بو عمير» و«زبيدة» مسدسًا، بينما حملت «إلهام» بندقيةً سريعة الطلقات، وطلب منها «أحمد» هامسًا أن تكون في حمايتهم من الخلف.

كان «أحمد» أول من بدأ الصعود على الحبل الذي يتدلَّى من نهاية القارب الكبير لربطه بالشاطئ، وبمهارة القرد تسلَّق الحبل حتى وجد نفسه عند نهاية القارب، فرفع رأسه ونظر، ولم يستطِع أن يرى شيئًا، ثم تبيَّنت عيناه بعض البقع الضوئية في أماكن متعدِّدة من القارب الكبير، فاستلقى على بطنه وزحف إلى الأمام، وخلفه جاء «بو عمير» ثم «زبيدة» ثم «إلهام»، وبعد أن أصبح الأربعة على سطح القارب وقفوا …

وبدءوا تحرُّكهم إلى الكابينة الرئيسية التي تتوسَّط القارب، وصل «أحمد» أولًا إلى السلَّم، دون أن يلتقي بأحد. كان يعرف أنهم جميعًا متجمِّعون في مقدمة القارب حول الكشَّاف، وهم يبحثون عن القارب الصغير الذي كان ملتصقًا بنهاية القارب الكبير …

نزل «أحمد» درجات السلَّم محاذِرًا، وسار في دهليز مضاء، في نهايته باب كله من الخشب، عدا فتحتَين أعلاه يغطيهما الزجاج. رفع «أحمد» رأسه ونظر من خلال الزجاج إلى الكابينة، وأحسَّ بأعصابه كلها تتوتَّر عندما شاهد الجالسين في الداخل … كان «مالو» يجلس في الوسط وقد وضع أمامه على المائدة كوبًا من الشراب، ومدفعًا رشاشًا. وبجواره جلس رجل آخر شرس الهيئة ضخم الجسم. وفي جانب من الكابينة كان ثمة رجل متوسِّط القامة موثق اليدَين والقدمَين. لم يشكَّ لحظةً أنه «روشيه»، صديقهم المعروف باسم «العصفور الأبيض».

فكَّر «أحمد» لحظات … إن الثواني القادمة بالتأكيد ثوانٍ حاسمة … إمَّا الانتصار والتخلُّص من «مالو» إلى الأبد، وإمَّا هزيمتهم …

والتفت خلفه وأشار إلى «إلهام» وأخذ منها المدفع الرشاش، وأعطاها المسدس، ثم قال بصوت خافت: إن «مالو» هنا. سأقتحم المكان … يدخل بعدي «بو عمير» بربع دقيقة، ثم «زبيدة» بعده بربع دقيقة، ثم «إلهام» بعدها بربع دقيقة. في كل مرة يجب أن نأمن المفاجآت.

ودفع «أحمد» الباب بقدمه ودخل … كانت لحظةً من أشد لحظات حياته إثارة، عندما شاهد «مالو» يرفع عينَيه إليه في نظرة ثابتة. ومد الرجل الجالس بجوار «مالو» يده إلى المدفع الرشَّاش، وضغط «أحمد» على زناد مدفعه، ولكن … لم ينطلق المدفع! …

وابتسم «مالو» قائلًا: إنها أسلحة قديمة يا صديقي! لقد أكلها الصدأ!

كانت لحظةً هائلة … ورفع الرجل المدفع الرشاش، ولكن قبل أن يضغط الزناد، كانت رصاصة من خلف «أحمد» قد مرقت عبر الكابينة وأصابت الرجل في رقبته! … فمال إلى

الأمام ... وانطلق المدفع الرشَّاش في أرض الكابينة محدثًا دويًّا رهيبًا! ... واندفعت المياه على الفور من القاع المثقوب ...

وسمع الشياطين الذين دخلوا جميعًا الكابينة صوت أقدام كثيرة على السطح تجري هنا وهناك، فقفز «أحمد» إلى المدفع الرشَّاش الذي سقط من الرجل المصاب ورفعه بين يدَيه، ثم قفز خارجًا وقال: «بو عمير» ...

وأسرع «بو عمير» خلفه، وقال «أحمد»: لا تتركا «مالو» يغيب عن أبصاركما، وفكَّا وثاق «مارشيه»!

وقفت «إلهام» بالمسدس وقد صوَّبته إلى جبهة «مالو» مباشرة، بينما أسرعت «زبيدة» تفك وثاق «مارشيه». وفي هذه اللحظة حدث ما لم يكن في الحسبان ... كانت «إلهام» قد أخذت تُفكِّر فيما يحدث على السطح، وهي تسمع طلقات الرصاص تُدوِّي في الظلام. وشردت لحظات قليلة، ولكنها كانت كافيةً لـ «مالو» كي يقرأ أفكارها، فقفز في خفة القط على قدمَيه نحوها. واختل توازنها فسقطت على الأرض، واندفع هو كالرصاصة خارجًا من الكابينة، وأسرعت خلفه، واستطاعت أن تراه وهي تفتح الباب يجري في نهاية الدهليز، محاوِلًا صعود السلَّم إلى سطح القارب، وأطلقت الرصاص، وتوقَّف «مالو» مكانه ... أصابت الرصاصات ساقَيه، فأمسك بالدرابزين وحاول بعزيمة جبَّارة أن يصعد السلالم ...

واندفعت «إلهام» إليه، وفي هذه اللحظة كان أحد رجال «مالو» يُحاول الدخول في الدهليز، قادمًا من السطح، وفي الظلام والضباب الكثيف لم يعرف أن الواقف أمامه في فُوَّهة الدهليز هو زعيمه، ظنه في لحظة التردُّد والاضطراب أحد الشياطين؛ فانهال عليه بالرصاص ... وترنَّح «مالو»، واستدار ينظر إلى «إلهام». كانت عيناه تشعَّان ببريق من الذهول، والغضب، والموت! ...

وارتفع في الظلام صوت قارب آخر، وصفَّارات تُدوِّي على سطح النهر، وعرف الشياطين أنهم رجال الشرطة ... ولم يكن أمامهم ما يفعلونه، خاصةً وقد أخذ قارب العصابة يغوص في النهر بسرعة، تحت ضغط المياه الداخلة إليه!

ودون كلمة واحدة، انطلقوا جميعًا ومعهم «مارشيه» ونزلوا إلى قاربهم الصغير، وسمعوا «عثمان» يقول في الظلام: ماذا حدث؟ هل وجدتم «مالو»؟

وردَّت «إلهام»: لم يعد هناك «مالو» يا «عثمان»؛ لقد قتله أحد رجاله!

واندفع القارب الصغير مبتعدًا في الظلام حتى التصق بالشاطئ ... وراقب الشياطين قارب الشرطة وهو يُحيط قارب العصابة بالكشَّافات، ولكن كان من الواضح أن أي محاولة

لإنقاذ القارب من الغرق هي محاولة فاشلة؛ فقد مال القارب على جانبه، وأخذت المياه تبتلعه تدريجيًّا!

في شقة أنيقة مفروشة في حي الشانزليزيه الفخم، تسلَّلت أول أشعة من الشمس بعد أيام من المطر والبرد إلى غرفة «عثمان»، وفتح عينَيه وحرَّك ساقه ... وقال متمتمًا: لا بأس ... كم الساعة الآن؟

ودقَّ جرس التليفون بجواره، كان المتحدث «مارشيه» وقال: أسعدت صباحًا ... لقد اتصلت برقم «صفر» منذ لحظات، إنه سعيد، أكثر من سعيد ... وقد طلب مني أن أضع لكم أحسن برنامج لزيارة فرنسا كلها. عندكم عشرة أيام إجازة! ... قُل لزملائك إنني قادم فورًا!

ووضع «عثمان» السمَّاعة ... وأخذ ينظر إلى الصباح المشمس، وابتسم ...

هنـــداوي